عزّة ديَابْ
رواية
رُوزْنَامَة
كيان للنشر والتوزيع

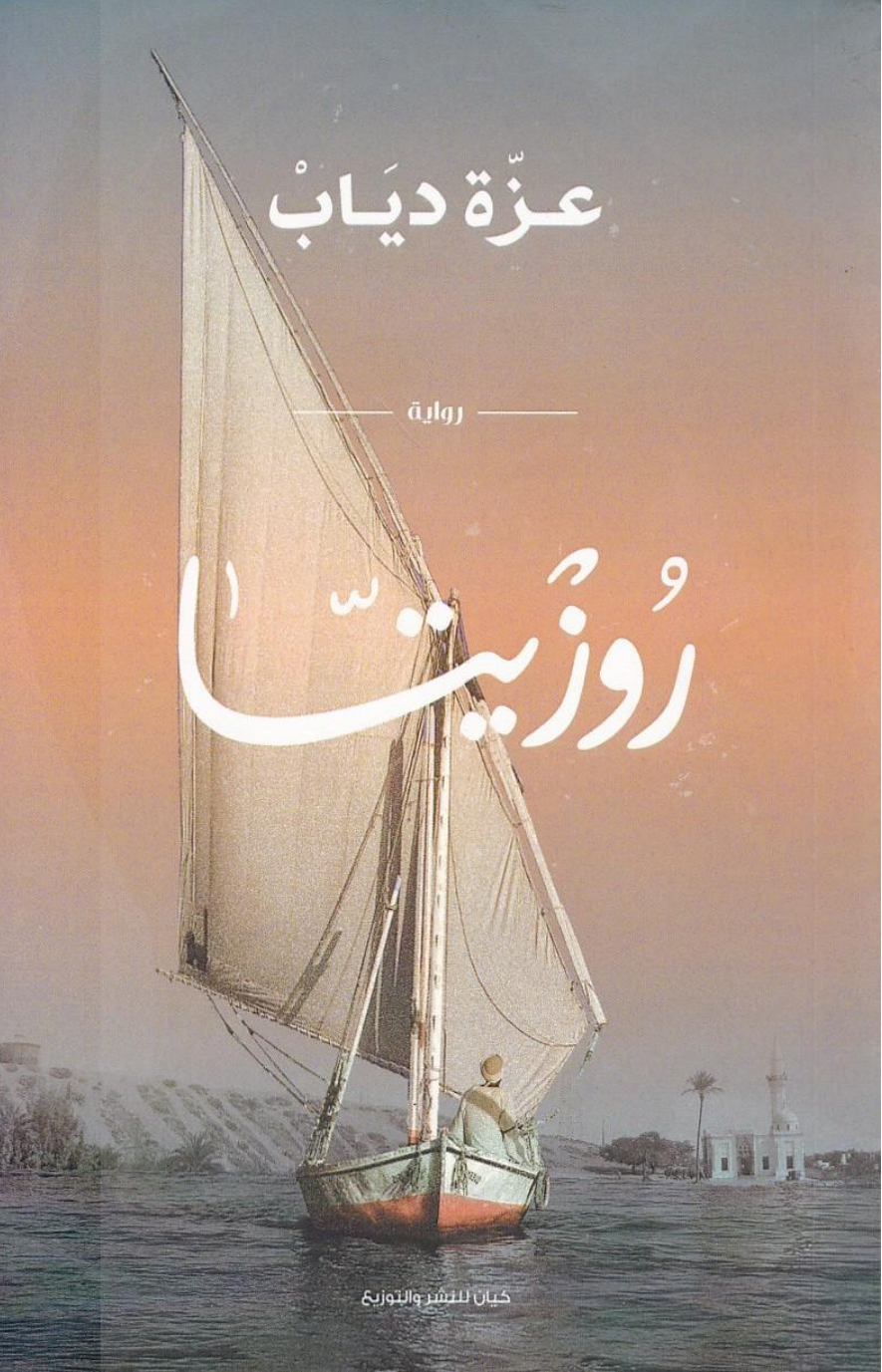

روزيتا

رواية

روزيتا

رواية

تأليف :

عزة دياب

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية :

محمد حمدي

رقم الإيداع : 2016/11991

الترقيم الدولي : 978-977-6376-91-5

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

روزيتا

عزة ميلاد

رواية

إهداء

إلى الواقفة على أعتاب البحر تقاوم النحر إلى رشيد.

-١-

ألهب الصهد اللافح لفرن الخبيز وجنتي حُسنة، وأنبت العرق من تحت عصبتها المشبعة بهبوات الدقيق، بعصا الفرن الحديد مثنية الطرف، وجهت الأرغفة النيئة نحو النار المؤججة عند الشاروقة، والناضجة إلى الحرف الطينى عند الحلق.

أثار الدخان المنبعث من الحطب المبلل بالندى دموعها، المصبوغة بسواد كحّل الحجر، الذي صاحب عينيها منذ تفتح الصبا، وما فرغت منه مكحلتها، كلما سافرت لأهلها في رشيد تجلبه من وكالة الحنة، ومعه خرج الحنة تنقش به على الكفوف والأذرع والأرجل، والحنة الخضراء تحنّي بها الكفوف والأقدام، وتحني بها شعرها مخلوطا بها مغلي الرمان.

بواكير الخبيز أرغفة طرية، تغطيها بالخضرة، وتنادي زوجة ابنها لتعد الفطور، فردت ساقيها في دفء الفرن، راحت تدلك ركبتيها، انبسطت أساريرها بابتسامة فبدت خطوط وجهها الأبيض الممتلئ والمحتفظ بمسحة من جمال الصبا، عندما تتذكر زيارة أخيها عصر أمس وحديثه عن عريس لعزيزة:

- راجل زين ومصطفى ابنك عارفه، متجوز؟.. وإيه يعني!

نفسه في عيل.

دار أبيها في شارع البنط المتفرع من شارع الصاغة. أيام الفيضان يصل النيل إلى أعتابها، وأحيانا يواصل سيره إلى وكالة الباشا في السوق العمومية. قبل الفجر تخرج مع بنات الحي يملأن الجرار، عدا أيام الفيضان الذي يملأ الآبار، فمعظم البيوت تحتفظ ببئر أو اثنتين.

حسنة هي الصغرى بين أختين وأخ، أختاها تعلمتا الحياكة، إحداهما مساعدة لخياطة كبيرة تحيك فساتين العروس، والأخرى يرسل إليها خياط عربي بالجلابيب الرجالي والسراويل المعروفة بـ»اللباس أبو كمر»، وتقوم بعمل الأزرار الحرير والسراجة.

اختارت حسنة السجاد. تأتي رفيقاتها صباحًا معهن لفائف الغداء. في طريقهن إلى المشغل يتضاحكن وهن يسردن تفاصيل ليلتهن الماضية. نول السجاد صفحتها تنقش عليها بالأصواف المصبوغة، من أول يوم لها في المشغل وضعت عينيها على سجادة وبرتها عالية وذوقها رفيع. تتمنى اقتناءها لجهازها، فهي ترى شغف البنات من حولها بما تدخره أمهاتهن من أمتعة لعرسهن. قبيل العصر ينصرفن إلى البيوت، وعند باب بيت كل واحدة تعزم عليهن بالدخول يقلن لها: - يوم فرحك.

جاءت أفراحهن، تزوجن في رشيد، وكان نصيب حسنة في إدكو.

أخوها محمد علمها القرآن والصلاة. كان شيخهن هي

وأمهـا وأختيهـا. مـن تحفـظ أسرع يكافئهـا بالملـبن والسـكر النبـات. تعلـم محمـد عـلى يـد الشـيخ محمـد أبـو السـعود. يحتفـظ محمـد بالقـرآن في صـدره إلى جانـب ذكرياتـه مـع الشـيخ الجليـل.

أبوهـا ليلـة الخميـس يصـلي العشـاء ويذهـب إلى حلقـة ذكـر أبي العزائـم. يحافـظ عـلى تلـك الليلـة مهمـا طـرق بابـه مـن تجـار العسـل القادمـين مـن أي بلـد. ليلـة الذكـر عنـده مقدمـة عـلى كل الأمـوال، ولأن حسـنة الصغـرى فـكان يأخذهـا معـه، وكـم نامـت ولـم تـدر إلا وهـو يضعهـا عـلى كتفـه، وفي مـرة قـال لهـا:

- كبرتي يا حسنة.. رجليكي عند ركبتي.

ومن يومها لم تذهب معه ليلة الذكر.

تتنهد حسنة منتبه من ذكرياتها:

- دسـتة شـمع لمقامـك يـا شـيخ خلعـي لـو تمـت جـوازة عزيـزة.

وضعـت صابحـة زوجـة ابنهـا لـوح خشـب ممتـلئ بأقـراص العجـين، تناولـت منـه عزيـزة ابنتهـا قرصـا فردتـه عـلى المطرحـة. أبقتـه عزيـزة بجوارهـا. لقّمـت النـار حطبًـا. مسـحت صـاج الفـرن بقطعـة ثيـاب مهترئـة مبللـة بالمـاء، لفتهـا عـلى طـرف عصـاة الفـرن، ثـم زجـت بالرغيـف المفـرود.

***

أرضعت زوجة الابن طفلها وتركته يحبو خلفها، تساعد عزيزة في نقل سجادة حجرة الأم إلى حجرة المسافرين، تحت ثقل السجادة:

- فيه إيه؟ عمر السجادة ما خرجت من أوضتها! يا طول ما تخترعي يا مرات خالي.

عزيزة تداري ابتسامتها ولمعان عينيها من زوجة أخيها، كي لا تلح في معرفة سر فرحتها أو سر الاهتمام الزائد بحجرة المسافرين، فقد سمعت من خلف باب حجرة أمها، أخاها الكبير يسر لأمها بموعد قدوم العريس:

- راجل زين، حداه بيت طابقين وعدة صيد.

- يا رب يكون من حظها ونصيبها.

منحتها كلماتهما إشراقا كسنا الياسمين المتلألئ بالندى.

كل زميلاتها تزوجن، ترفض أمها العرسان، تريد عريسا غنيًا، تتوق روحها إلى لبس فستان العرس، وما يصاحبه من تصفيف للشعر ورسم للوجه بالأصباغ وللجسد بالحنة الخرج، مثل ما رأته يحدث مع بنات عمها وصابحة بنت عمتها زوجة أخيها.

ترمقها زوجة أخيها وهي تفرش الكنب العربي بالأغطية المزركشة، والغمازات في خديها تعلن عن مكنون نفسها.

تنحني على طفلها المتشبث بذيل جلبابها:

- تعالى يا ابني عمتك سرحانة النهاردة.. قال يا خبر

بفلـوس.

تعـد حسـنة الجمـرات للمبخـرة في حـوش البيـت، المحتضـن بـين جنباتـه فـرن الخبـيز، وكومـة حطـب مـن جريـد النخـل.. قحـوف وخُـوص وأعشـاش دواجـن وبـط وشـجرة ليمـون تتنفس عطـرًا، رغـم أن شـوكها يحرمهـم الجلـوس في ظلهـا.

بخـرت حجـرة المسـافرين وحجـرة عزيـزة، تذكـرت حجـرة ولديهـا الغائبـين شـحاتة والصـافي، عندمـا أنهـى شـحاتة دراسـته في مدرسـة المعلمـين بدمنهـور دخـل كلية دار العلـوم بالقاهرة، كل شـهر يـأتي لزيارتهـم يومـين، وهـا هـي ترتـب فراشـه وكتبـه، قـد يـأتي في أي وقـت.

الصـافي أخـذ الابتدائيـة بشـق الأنفـس، وكان يهـرب ويصطـاد مـع أعمامـه في البحـيرة، أو يذهـب إلى أخوالـه في رشـيد، المهـم أن يهـرب مـن المدرسـة.

ترفـع طـرف الملاءة المنسـدل عـلى سريـره، فتجـد صناديـق الزيـت فـوق بعضهـا.

- الله يحرقـك يـا هتلـر، ولعتهـا نار في قـوت الغلابـة، وينجيك يـا شـحاتة، إنت الـلي بتوعيـني، الصـافي تاجر؟!

-هـو فين من امبارح الصبح؟!

أعطـت المبخـرة لصابحـة لتبخـر غرفتهـا، مـن الشرفـة نـادت ابنهـا الكبـير مصطفـى، رد عليهـا مـن الحـوش ولـم يدخـل البيـت، كان ينظـف عجولـه الـتي يربيهـا ويتاجـر فيهـا.

- عايزة إيه يا امه؟

- الصافي فين من امبارح؟

- قال هيغيب أسبوع.

- الناس هتيجي وشحاتة والصافي مش هنا!

- إنتي الخير والبركة، واعمامي وخالي محمد، وعلى العموم شحاتة والصافي اللي توافقي عليه عندهم نافذ.

***

رفعت صابحة طفلها على كتفها بعد أن جهزت الشاي، وزينت عزيزة بطرحتها الحرير، كما أوصتها حماتها. تقرص عزيزة خديها وإن كانت لا تحتاج، فيكفيها احمرار خديها، وعينيها الرصاصيتين، وفمها الرقيق، وقوامها الملفوف الذي يعلن عن نفسه مهما اتسعت الثياب.

دخلت برفقة أمها، وضعت المشروبات على المنضدة في منتصف الحجرة، لم تستطع الوقوف وهي تشعر بالأعين تحملق فيها والسخونة تنبعث من وجنتيها، خرجت وأمها تضحك.

تلقتها زوجة أخيها:

- شُفتِي العريس؟

- هو أنا عرفت أرفع عيني!

- تعالي من هنا تعرفي تشوفي.

من بين ضلفتي الباب الموارب، من بين الحضور غريبان يبدوان أبًا وابنه، أو أخًا كبيرًا يصطحب الصغير الذي في هندامه وطربوشه وقور أخّاذ، سمعت نحنحة فهرعت إلى غرفة مجاورة وراء زوجة أخيها.

دخلت الأم إلى غرفتها يتبعها الابن والبِشر على وجهيهما.

- عريس زين بس لو كان خالي من غير مَرَة.

- الراجل مقتدر، إيه يعيبه؟ يا امه دي هتروح رشيد.

- حَقة وتبقى هناك جنب خالها، ابعت لشحاتة بمعاد كتب الكتاب، وشوف الصافي راح فين، الواد ده مدوخني، عامل تاجر في الأيام الغابرة، أشوفه بكرة يجيب اللازم لعزيزة، مش كفاية انها يتيمة؟ كانت محتاجة أبوها في اليوم ده.

- اللي تقولي عليه ماشي يا امه.

تملأ كلماته صدرها سرورًا، إنه يشبه أباه.

- مافيش حد زي محمد في طيبته وحنيته. ورحلة التعب وعشش الصيادين والخروج من العيلة، قلت له مرات أخوك واقفة ع الغلطة وعايزاني أخدم لوحدي، كان قد قوله، صحيح عشت ف عشة بس كنت ست البيت، ونصبت النُول واشتغلت عليه الكليم للعرايس، وهو يصطاد بالليالي في البحيرة وأبو قير ورشيد، يجلب خير ربنا لغاية ما بنى البيت، وكان أحلى من بيت العيلة، وبعد ربنا ما اختاره

عشت ف خيره، نص المركب الِشرك ستَرني، صحيح العريس كبير ع البنت بس صحته حلوة، طول بعرض ومستور.

ترهف عزيزة السمع قد تلتقط أي كلمة تريحها، تأتي زوجة أخيها فجأة وتفزعها.

- تاخدي الواد ينام معاكي الليلة وأقول لك اللي عايزة تعرفيه؟

تحدقا فيها بعينين ماكرتين.

- خلاص بلاش على راحتك.

- هاتي الواد.

- يوم الجمعة كتب الكتاب والجمعة اللي بعدها الدُخلة.

- العريس اسمه إيه؟

- أيوه الريس علي.

- شفتيه يا صابحة؟ هو أبو طربوش.. صح؟

- أيوه مين غيره، شكله كده العريس، حلو يا بت مبروك عليكي .

***

صعد علي وزوج أخته إلى الحافلة، أوصلهما الخال محمد، ومصطفى شقيق عزيزة، تحرك من فوره مع تلويحهما لهما، ركن كلاهما إلى النافذة القريبة والهواء يتلاحق على أنفيهما، على جانبي الطريق تبرُق الخضرة تحت أشعة الشمس المحتضرة، لا تحصر العين اخضرارًا، فمنه محاصيل ومنه بوص وسمر تحُط العصافير على شوشته، اجتاز الأتوبيس المزلقان بارتجاج، وأزيز احتكاك عجلاته بالقضبان، وصفق باباه، التفت زوج الأخت:

- مشوار ماكانش ع البال.

- لغاية دلوقتي مش مصدّق، أشوف عروسة وأقدم مهر واتفق على كتب كتاب ودخلة! هو أنا هاعيده تاني؟ وأُنس؟!

تتابع عيناه من النافذة الشفق الدامي في الأفق.

- عذرك معاك وأُنس موافقة.. لازم تدور ع الزعل؟ بكرة لما تشوف عيالك هتقول يا ريتني عملتها من زمان.

مسطحات الملح المكوم الأبيض، ومربعات أخرى تميل إلى الاحمرار، لملح لم تنحسر عنه المياه والرائحة النفاذة، السماء ملونة ببياض وزرقة واحمرار، رائحة البحر قريبة من تلك الرائحة في سرحات أبي قير، أيام أربعينية النيل، كانت رائحة الملح تعبّق صدره وتغذّي أمله أن يكون لديه موتور صيد يخترق المالح.

من رائحة اليود إلى رائحة الدخان قرب البوصيلي،

جذوع أشجار ونخيل مقطع قوالب متراصة، تحرق فحمًا في مجمرات، تلقي حممها في الهواء، عبرتها الحافلة مسرعةً ووكالات البوصيلي المزدحمة وتلاها مزلقان آخر.

استسلم علي للنسمات المعطرة، والزرع يحاصر العين، والماء المترقرق في الترعة، سيزف ثانية، سيطوفون به البلدة، ويزفونه بالمشاعل.

باغته صوته:

- ضحكت عليك أُنس يا علي، وضيعت عمرك تنتظر أرضها البور.

يطلق الآخر الجالس في مكان لا يحدده ضحكة رنانة:

- دلوقتي أنس أرض بور يا جاحد.

أدار وجهه ناحية الزرع المقتحمة أغصانه النوافذ، كاد يصرخ فيه: - وإيه فايدة الريس من غير ولد سند وريث!

يضع وجهه بين يديه كأنه يتوارى من الآخر المحدق فيه، والآخذ صوته في الأفول، لكنه واضح:

- كان ممكن تكون أجير ومن غير ولد ومن غير حب.

ضج منه، لو تمثل له الآخر رجلاً أمامه، لألقاه من الأتوبيس:

- يخرب بيت الحب وسنينه.. دا سجن.. أحرس الحب عمري كله، واللي زاد وغطى أتجوز لأن دا طلبها.

وضع يديه على أذنيه يوقف الصوت المندلع من الآخر،

يستعيد مشهد رؤيته للعروس، يبتسم، فقد منح حياة جديدة.

-٢-

دققت عزيزة النظر إلى ذراعيها وساقيها بعد الجلوة، مستغربة ملمس جلدها ولونه، أرخت اليد تلو الأخرى لزوجة عمها، تنقشهما بالحنة الخرج، رَسْمة التمر حنة، ثم مدت القدمين لاستكمال النقش.

بنات الجيران والأهل أخذن في الدق على الصواني النحاس، صدحت البنات بأغاني العرس، تنهض الواحدة بعد الأخرى لتتوسط حلقة الرقص.

النسوة تجمّعن، كل واحدة تحكي عن حنتها وليلتها، تتسرب ضحكاتهن المكتومة لعزيزة، فتود لو تصمت البنات قليلا لتلتقط أذناها بعض ثرثرتهن عن الدخلة.

تحسب الأم الهدايا والنقوط، الجديد منه والمردود، ترتب سِلال العروس.

- آخر ليلة وتاخد عزيزة كراكيبها وتعيش تحت سقف تاني، صدق اللي قال مطرح البنات خالي!

تلمح أختها دموعها:

-خبر ايه يا حُسنة؟ إحنا مش كنا بنات زيها وصبح لكل واحدة فينا دار؟ أنا هاقول لك إيه؟ مانتي ست العارفين.. روّقي يا أم العروسة.

***

خطت العروس عتبة بيتها بقدمها اليمنى، كما أوصتها أمها بصحبة أهلها وسلالها المعبأة بالهدايا لأهل العريس، في سلم البيت تعكس شمس الأصيل ألوان الزجاج الملون، لنافذتين معلقتين في بئر السلم، البنفسجي والأحمر والأصفر والأزرق، فتثير في النفس البهجة.

أجلستها النسوة في حجرة واسعة أرضيتها من خشب، بها كنب عربي مثبت في الحوائط والأرضية، منبسط بالحشايا القطن والمساند، مفروش بالمفارش الملونة، النوافذ طويلة مشرعة الشيش والزجاج، يظهر منها الشارع وضفة النهر المزدانة بالمراكب التي يطلق عليها أهل البلدة «اللواتس» المخصصة لصيد السردين، السماء الصافية الزرقة المطرزة بالسحب البيضاء، ونسمات العصاري المحملة برائحة النهر تنعش الروح وتطمئن النفس.

اقتربت بعض النسوة من العروس يتعارفن:

- أخته رتيبة.

- وأنا أخته نفيسة، ودي ضرتك أُنس، اعتبريها من دلوقتي أختك.. على رأي المثل، مركب الضرايب سارت ومركب السلايف غارت.

وتتعالى الضحكات، وكأن هناك من ضرب على أذني عزيزة، فما عادت كلمة ضرة تسمعها بعد، توقفت عندها، سمعتها سابقا في إدكو، لكنها لم تكن تعرف أنها ستكون ضُرَّة من أول أيام زواجها، تطفو على لوحة ذاكرتها عركات ضرتي عمها، الصراخ المصاحب لشد الشعر، والغيرة لأتفه

الأسباب، ألحت على أمها أن تتركها تبيت مع ابنة عمها الكبير ليلة حنتها.

عندما جاء عمها الأوسط زوج الاثنين، تعاركت الأولى مع الثانية على تسخين مياه التشطيف له، وكل منهما تمسكه من ذراع ليستحم عندها، وكل منهما أيضا تقول للأخرى:

- اتكسفي على دمك، مش لسه متشطف عندك امبارح؟

وهو ينظر إليهما واجمًا ومأخوذًا، وقد يئس من عدم اقتناع إحداهما بترك تشطيفه للأخرى، ألقى يمين طلاق على الاثنتين بأنه لن يتشطف اليوم، ولن ينام إلا في صحن الدار. صحيح كانت تراهما جالستين معًا أمام طبلية العشاء الواحدة، مهما حدث من شِجار طوال النهار.

تقطع أمها شرودها:

- ضرتك ماخلفتش والراجل من حقه يشوف خلفه، اتشطري انتي واملي عليه البيت عيال، وهو يشيلك في عينيه، هتبقي انتي اللي ع الحجر، اضحكي وافرحي، ماتخليش حد يا خد باله، شايفه بيتك، يا بت انتي ف أمّلة ماحدش يحلم بيها، إنتي تعرفي ان أمك ترضالك حاجة وحشة؟

- ماتخيلتش في يوم اني اتجوز راجل متجوز!

أسبلت عينيها، وكانت هذه هي أول مرة ترفعهما في عيني أمها بهذا القدر.

- روّقي ياللا ما تخليش النسوان يقولوا القمر غيم ليه!

تزين وجه الأم ابتسامة، عندما ترى ابنتها وقد أفصحت ابتسامتها المرتعشة، عن بريق قواطعها.

***

في الجانب الآخر من البيت، السطح تفوح منه رائحة اللحم المشوي على الفحم، وطواجن الخضار، وقد رُصّت الكراسي للرجال، تنحى شحاتة بمصطفى أخيه الكبير عند سور السطح:

- العريس كبير شوية على عزيزة، وكمان مش أول بخته!

- ودي حاجة تعيب الراجل؟! أنا أعرفه من زمان، راجل عال وخالك محمد عارفه وأمك شافته.

- عزيزة شافته؟ وعارفة انه متجوز؟

- خبر ايه! من إمتى بناتنا عينيها مفتحة ع الكلام ده؟ عيشتك في مصر نسّتك عاداتنا؟

حدجه مصطفى بعينين غاضبتين، طأطأ شحاته رأسه، كأنه يبحث في أرضية السطح الإسمنت عن شيء ضاع منه.

سرعان ما خرج من سكوته عندما وجد أصدقاء الدراسة من أهل العريس، ابن نفيسة أخت علي، عبد المنعم وحسن، تعانق ثلاثتهم، حسن كان زميله في مدرسة المعلمين بدمنهور، وعمل مدرسًا ابتدائيًا في رشيد، وعبد المنعم

يدرس الحقوق في جامعة الملك فؤاد بالقاهرة، وكان يسكن مع شحاتة في العام الماضي.

- أخدتها من قصيرها يا حسن! وأنت يا مِنعم فينك؟

- سكنت مع إخوان من رشيد، زملاء في الكلية والجامعة.

- لو ماكانش فرح أختي كنت اتمشيت معاكم واتفرجت على الآثار، منزل عرب كِلي والميزوني.

سحابة مرارة تعبُر قسمات وجهه، مُذيّلة بابتسامة باهتة، وهو يدنو من الأخوين باهتمام، كأنه سيُسر إليهما بسر.

- صحيح هو البواب جوّز زبيدة لراجل أجنبي برضاها؟ وللا عيب انه يفتح عينيها ع الكلام دا؟

ينظر الإخوان لبعضهما مبتسمين فيقترب عبد المنعم بمقعده من شحاتة بينما ينادى أحد الرجال على حسن:

- مالك يا شحاتة، شارد كده، مش عوايدك، إنت سِبت الوفد؟

تشرد نظرة شحاتة:

- مش عارفين مصر هتدخل الحرب وللا لأ؟ ولغاية إمتى راح يفضل الإنجليز يضغطوا ع الملك والوزارة؟

- الألمان هيطردوا الإنجليز من مصر.

- المحور، ونسيت إيطاليا وعمايلها في ليبيا؟ أنا نفسي ف بلد حر يحكمه الدستور والبرلمان وحرية التعبير.

- انضم للإخوان المسلمين معانا، هتشعر براحة في رحاب الدين والدعوة إلى الله.

- مين؟ اللي بيهتفوا بحياة علي ماهر اللي بيحاول بدهائه ومؤامراته فرض أوتوقراطية القصر على حساب الحياة البرلمانية!

يداعب منعم لحيته بأنامله وجبينه مقطب:

- يا شحاتة ماتاخدش حادثة مجاملة للراجل لما عاد من مؤتمر من أجل فلسطين، مقياس.

- دي سياسة يا منعم، يعني كل يوم وكل ساعة بتتلون بالمصالح، أنا خايف ييجي يوم وننسى الهدف الأصلي.

أحضر حسن أكواب المشروبات.

- اشربوا، خذوا راحة من السياسة شوية، النهارده فرح، إيه مابتعرفوش تفرحوا؟!

***

اصطحبتها أمها إلى غرفة أخرى، تعكس عليها شمس المغيب دفئًا ونورًا هادئًا يدغدغ الوجدان، بها فراش بعمدان نحاس، حشواته عالية، يزينه مفرش مطرز بخيوط فضية وذهبية، وخزانة ملابس مثبتة في الحائط، ومرآة وصندوق موشى بالصدف، تلهث في تتبع آنية العطر والمكحلة وأصباغ الشفاه وصندوق الذهب، قدمته لها أمها:

- دهبي أهوه.. دهب أخوكي مصطفى وخالك محمد أهوه.. دهب العريس غير اللي انتي لابساه أهوه.

يبرق الذهب أمام عينيها فتطل السعادة منهما.

أغلقت أمها مصراعي النافذة، وأشعلت ذبالة لمبة الجاز وعلقتها بجوار الباب في مكانها المعتاد، نورها الخافت يعكس ظل الأشياء، تشرد عزيزة في الظلال كأنها تبحث عن طيف فارس الأحلام، كما قالت صابحة، الأصغر في الاثنين، من غيره، تنبهت على صوت أمها:

- عزيزة، المفروض نستنى لغاية ما نشوف شرفنا، خالك عايزنا نبيت عنده الليلة، بكره قبل ما تفتحي عينيكي هنيجي كلنا، عايزاكي تنوري بيتك.

تطلق الزغاريد وهي تغالب دموعها، تقترب من الباب فتعود وتحتضن ابنتها، ثم تسرع مغلقة الباب خلفها.

***

ذهب الجميع وأغلقوا باب البيت خلفهم، وقف عليّ حائرًا؛ كيف يدخل لعروسه ويترك أُنس؟ لم يكن يعرف أنه يكره أُنس كما يكرهها الآن، فهي عقبة يصعب تخطيها، ينتبه لأنه ليس عليه الآن التفكير في أُنس، فهو عريس وعروسه تنتظر، لاحت عزيزة لخياله، يأكله الشوق، يفاجئه انتصابه، تأخذه قدماه إلى حجرتها، يتراجع عندما ينتبه لأعين أنس تتابعه.

تشاغلت أنس في لملمة الأطباق والأكواب وأخذتها إلى السطح، عادت لتجده دخل لعروسه، حدقت بالباب الموصد بعينين بائستين يقطر منهما الهم، سرت قشعريرة في جسدها تنتفض كالمحمومة، تفلت الأواني من يديها، دارت بين مواقد الفحم التي ما زالت متقدة، ويؤجج النسيم وهجها والكوانين تطفح صهدًا، بلل العرق صدرها وجلبابها بين الصهد والوهج، كيف توردت بين يديه وتكورت أنوثتها وعرفت في حضنه المتعة، لا تأكل إلا معه، لا تنام إلا في حضنه، لم تعد ملاذه، كيف تتركه لأخرى!

تخبو نار المواقد وما زالت النار بداخلها متوهجة.

***

ظلت عينا عزيزة معلقتين بفيض السعادة التي سينفتح عنها الباب، تعلو ضربات قلبها، دنت اللحظة، تتذكر أن لها ضرة لا بد من أنها تحجزه ولا تريد دخوله إليها، أليست امرأة ككل النساء؟! يتردد استنكار داخلها: «ليه أتجوز راجل تشاركني فيه واحدة تانية؟» يأتيها صوت أمها «الراجل نفسه ف عيل». «وإيه ذنبي! وإذا ماخلفتش يتجوز تالتة؟».

تغمض عينيها محاولةً تهدئة نفسها، فقد دخلت الفخ ما دامت أمها رضيت.

- أتأخر ليه هو فاكرني.

انفتح الباب، همت عيناها بمعانقة الداخل، أرختهما بضيق، لم يكن هو، إنه الآخر أبوه أو أخوه الكبير، طويل يكاد يسد ضلفة الباب، أغلق الباب وتقدم نحوها، تعكس اللمبة ظله الكبير، فيجثم عليها وعلى ظلها، ينظر إليها بتودد، يقترب، ترتد إلى الخلف، يحجزها السرير، يهمس بكلام يأتيها من علٍ، فرأسها عند صدره:

- نورتي بيتك.

تبهت ابتسامتها، يرفع الطرحة، ترتعش.

- حد يخاف من عريسه؟

زاغت عيناها تبحث عن النوافذ الطويلة لتهرب منها، لماذا أغلقوها؟! يضغطها إليه، تشعر بشيئه الصلب على بطنها، تتملص منه، يفتح مغلق الفستان من الخلف، يفاجئها عريها كأنها موزة تقشرت عنها قشرتها، تبكي،

يضمهـا، تنتفـض، يهمـس في أذنهـا:

- لأ.. صوتك.

يربـت عـلى كتفهـا العاريـة بيـد وباليـد الأخـرى يخلـع عنهـا مـا تبقـى، تقتحـم عينـاه ويـداه عريهـا، وفمـه يلثـم وجههـا وصدرهـا، يجـوس في أنحائها المرتعشـة الشـهية، يتعرى تغمض عينيهـا عـن المتمـدد أمامهـا، ترتـد ولا تعـرف إلى أيـن بعريهـا، ومـن أي منفـذ تهـرب وقـد سـد وجـوده في عينيهـا المنافـذ، تتأرجـح ذبالـة اللمبـة فيترنـح ظلهـا عـلى الحوائـط والأثـاث، يسـيطر عليهـا إحسـاس كانـت تشـعر بـه وهـي طفلـة، عندمـا تصعـد تـلاً مـن الرمـل ثـم تـترك جسـدها يتدحـرج مـن أعـلى التـل إلى السـفح، بقـوة جاذبـة أكـبر مـن تحكمهـا.

تنتبـه مـن دحرجتهـا عـلى صرختهـا المكتومـة، وأصابعهـا المنغرسـة في المرتبـة، ونهنـه بـلا دمـوع، وترتسـم عـلى المنديل الأبيـض قطـرات مـن دمهـا.

- اطمني يا امه.

قالتهـا بصـوت أجـوف يـرن داخلهـا، كمـن سُرقـت تحت سـمع ويـصر بـل ومباركـة الجميـع، أدارت وجههـا الناحيـة الأخـرى متكومـة في حـرف الفـراش قابضـة عـلى الغطـاء.

-٣-

تتقلب أُنس في الفراش، الأشواك منغرسة في مرتبتها، ما أن يلمس جنبها حتى تنقلب على الجانب الآخر، الذي لا يتحمل هو الآخر وخز أشواكٍ كالإبرة الصدئة، تعد عروق السقف وألواح الأرضية الظاهرة من تحت الكليم، لم تكن الغرفة الضيقة غرفتها، منذ أيام فرشت غرفتها الواسعة للعروس، والليلة تنازلت لها عن رجلها.

سمعت صوت البنات الذاهبات للنهر، حفيف جلابيبهن وضحكاتهن المكتومة بأطراف طُرحهن يشي بها صمت الليل، ارتدت جلبابها الأسود فوق القميص القطن المقوّر، وحبكت المدورة السوداء ومن فوقها طرحة قديمة سوداء متربة، خرجت إلى السطح لأخذ جرة المياه، اصطدمت عيناها بباب عزيزة المغلق، اغرورقت عيناها.

- يعني ماكانش حلم؟!

أجابت البنات اللاتي يحملن إليها المياه كل ليلة، أعطتهن جرارهن وحملت جرتها، استغربت البنات، وقالت إحداهن:

- خليكي واحنا نجيب الميه لغاية عندك زي كل ليلة يا ست الكل.

- نفسي أشم الهوا شوية.

تغامزت البنات الأخريات:

- أُنس مرات الريس علي، واللي أبوها صاحب سرجة تملا ميه بنفسها؟! لازم لها غرض تاني، يمكن هتشق القمر على ضرتها.

كذب حدسهن فقمر الليلة محاق.

تتلاحق النسمات تهز الضباب الملتفعة به المدينة في انتظار شمس تزيحه، تبدو أشجار البر الثاني في الظلام كأنها أشباح يحجزها النهر، رائحة الفل والياسمين تذوب في رائحة النهر وتجدد الهواء في صدرها، القوارب واللواتس راسيات على الشط تهتز باهتزاز الموج الناعم، وهناك قارب أخذه الموج بعيدًا، حبله مربوط في وتد، يبدو أن صاحبه أرخى له الحبل، من يرى الشط الآن أو قبل مجيء البنات، يظنها مدينة مهجورة أو نائمة تحت غلالة الليل.

بعض البنات يملأن الجرار، تغسل إحداهن سراويل أبيها، يساعدنها ويتضاحكن:

- يا بت دا لباس أبوكي وللا قلع مركب. وهي مرة تجيب: بردروبة، ومرة: لباس بكمر.

- يللا يا بنت حطيه في الطشت ونرفعوا عليكي.

- بسرعة يا بنات في صوت رجالة من الناحية دي.

- أيوه دا معادهم قبل السمك ما يخرج من جحوره.

رفعن على أُنس جرتها فوق خِرقة مبططة فوق الطرحة،

تدلدقت المياه على جانب وجهها، أسبلت عينيها متذكرة شفتي علي في لثمه وهمسه، وكم أحبت كل ذرة فيها أصابعه وقبلاته، تقاطرت المياه على صدرها، التصق نهداها بالجلباب، دارت بخلدها أمنيتها العنيدة في أن ترضع منهما مولودًا من بطنها الذي خذلها. ما يربو على العشرين عامًا وهي تجرب وصفات الدّايات.

ولد تحافظ به على زوجها، رجلها، فتحت عينيها في الدنيا عليه، الليلة هجرها إلى حضن أخرى، حقًا قالت له تزوج وكررت عليه طلبها، كيف تحرمه من تحقيق ما عجزت عنه!

قالتها وقلبها يتمزق، وعيناها تتمنى ألا ترى هذا اليوم أبدًا، تلح عليها فكرة ترك جسدها يأخذه النيل الحنون، يبتلعه ويطويها النسيان، تنسى علي وعذابها في بعده، فهي أبدًا لن تتسول عطفه ليبقى ليلة في فراشها، ولن تحارب ضرتها، وأيضا لا تستطيع البعد عنه.

همت بسكب الجرة في زير الاستعمال، عدلت، حملتها إلى الحمام، أفرغتها في آنية الاستحمام، سرت في جسدها رعدة حين أدركت أنها تعد حمام الصباحية لضرتها.

ألصقت أذنها بالباب الموصد، أتدفعه؟! ستقول إنها لم تعتد الوضع الجديد، ستجده يلف ذراعه حول صدرها أو خصرها، فكثيرًا ما نامت مطمئنة وذراعه تطوقها.

سمعت همهمة، ابتعدت عن الباب لاحظت طرقعة قبقابها، التقطته في يديها، أسرعت إلى غرفتها، اندست في فراشها، تبث الوسادة دموعها، يتسلل إليها أذان الفجر

وزقزقة العصافير المستقبلة بشائر النور، تنهض لتعد فطور العروسين وتجهز البيت لاستقبال أهل العروس.

***

متكوّمة في مكانها، لا تصدق ما حدث، من دون أي شعور منها، لم تقاوم أو تخجل، استسلمت، تغيبت مشاعرها من وقع المفاجأة، أفاقت على شهقتها، وجدته يمسح بالمنديل الدم المنساب على فخذيها، جذبت الملاءة فوقها وأدارت وجهها الناحية الأخرى.

بعد فترة وجيزة شعرت به يزيح الغطاء عن كتفها المرمري، أنفاسه تتلاحق، لثمه يزداد لكل ما تقع عليه شفتيه من اللحم البض اللدن المدلك بالطيوب، يلامس شاربه جلدها، تستجيب للمسات أصابعه مستشعرة دغدغة تسرى في جسدها، كأنها مسارب ماء في أرض عطشى.

تلتفت إليه، تسر عيناه لعينيها بالمحبة، ينثر القبلات على خديها وعينيها، تتفتح ورود رغبتها، مستجيبة له بكل مشاعرها.

أنارت ابتسامة رضا خجلة وجهها، ارتدت قميص نوم آخر، مشطت شعرها، أطعمها بيده، حدثها عن مشاعره الطيبة منذ رآها تحمل صينية الشربات، وتتعثر في حيائها، شعرت بالألفة تنمو بينهما، نامت وذراعه حول خصرها،

أقلقتها طرقعة قبقاب أُنس فالتصقت به أكثر، ونسيت أنها خدعت وأنه ليس هو، ماذا عليها أن تفعل غير الرضا بالمقسوم؟ يقتحم صوت أخيها محمد السكون:

- ماعندناش بنات عنيها مفتحة.

تجذب الغطاء على رأسها مغمضة عينيها.

***

سلكت حُسنة طريقها إلى جامع الخلعي، بعد زيارتها لعزيزة في الصباحية، ورؤيتها لها منورة بيتها كما أوصتها ليلة أمس، تطوف ابتسامة حلوة بشفتيها عندما تذكرت فرحتها حين وقعت عيناها على منديل الشرف، خطفته بيد ملهوفة وأشارت به إلى النساء، زغاريدهن ما زالت تتردد في أذنيها، تشد الطرحة وتغطى بها فمها.

- البنت صابحة هاتك يا رقص، حقتنا نسميها صابحة زمبلك، وإن كانت عزيزة زغدتها في جنبها، وأخدتها على جنب، فاكرة اني مش عارفة، يا عيني عليكي يا عزيزة، صابحة حكت لي امبارح بالليل انها كانت فاكرة العريس هو الصغير في الاتنين اللي زارونا في إدكو، قلت لها يا خايبة التاني جوز اختة، وعياله رجالة، هو اللي شكله كده، قلبي كان بيطب امبارح لما عزيزة اتغيرت لما عرفت ان لها ضرة، يا ريتني قلت لها قبل كده، عيني على بنات الأيام

دي! عايزين يقعدوا ع الأساس، هي الأمر عايزة لبنتها حاجة وحشة؟

أوصت صابحة بأن تأخذ النساء إلى دار أخيها، وهي ستوفّي نذرها قبل عودتهن إلى إدكو.

صدرها منشرح، تداعب النسمات طرحتها، فتلمها بيدها على جانب وجهها، عند التقاطعات تزيد سرعة النسمات، فتنفخ ملسها الذي ترفل فيه كعروسة مولد استبدلت بكرانيشها الملونة الملس الكريشة الأسود.

عند مُوردة البصل بضائع كثيرة، الأجولة على الأرض وفوق الميزان، والعربات الكارو محملة، يطل الثوم والبصل من حوافها، والمراكب تنزل حمولتها من البضائع والبشر، صانع الفخار يرص إنتاجه من جرار وقلل وطواجن الفرن، صبيّه يعجن الطين قرب النهر، ويسكب فوقه دلاء المياه، ويقلبها بيديه وقدميه.

في الشارع المقابل سوق، اشترت منه حصيرتين سمر، ومكنسة ليف، ودستة شمع.

صلت ركعتين، لملمت حصر الجامع، نفضتها، كنست الأرضية، استبعدت منها اثنتين باليتين، وفرشت حصيرتيها، صفت الشموع في مكانها قرب المقام، أوصت فراش الجامع أن ينيرها قبل أذان المغرب، قرأت الفاتحة، دعت لأولادها بالصحة والستر، تذكرت أباها فقرأت له الفاتحة، عادت إلى الصغر عندما كان يأخذها معه في جامع المحلي، يمد يده لها بطبق الفول النابت وعليه الزيت الحار يتصاعد

منه الدخان، ترفع عينيها عن الطبق، لتجد أباها في حلقة الذكر، يهتز ويتمايل في ذكر الله، كم أفنى من الليالي مع بردة البوصيري، تغرقه الدموع ولسانه وكل جوارحه تهيم في الذكر «الله حي» يظل هكذا إلى وقت متأخر من الليل، أحيانا تنام، وتشعر باهتزازه كأنه يهدهدها، تبدو لعينيها الشجيرات على شط النهر، واهتزاز أوراقها، وحفيفها، كأنها هي الأخرى في حلقة ذكر.

بعد الجامع، مضارب الأرز، أخرجت الكسر والِسرس أكوامًا، يلتف حولها من يتاجرون في العلف، والعصافير من كل الأنواع تحط عليها، كلما تحرك شخص رفرفت مبتعدة، وعندما تهدأ الحركة تعود تأخذ نصيبها ولا يستطيع البشر منعها.

في عودتها بمُوردة البصل، وقفت تشاهد موكب عروس نزلت من المركب، وحولها النسوة يرتدين جلابيب سود، ويلتفعن بشيلان سوداء حرير ذات وبرة ناعمة، فوق منديل الرأس المزركش بالزهور، ما عدا العروس فكانت تلتفع بشال أحمر، ودبابيس الشعر الملونة من تحت منديلها، وحُمرة حياء وفرحة عينيها الحالمتين، سلكن أقرب طريق للسوق العمومية والوكالات، لاشتراء لوازم العروس.

***

أبقى شحاتة طربوشه في يده، حتى يجف شعره، بعد

الحمام الذي أخذه في حمام عزوز مع رفاقه عبد المنعم وحسن، وانضم إليهم في الحمام أخوه الصافي، وصديقه سائق عربات النقل. كان زميله في الجهادية، سرسوب المياه الساخنة، وآخر لمياه باردة، وراتب صرف يسحب بمقدار فيُبقي ماء الحوض متجددًا.

أحضر كل واحد منهم صابونة ولوفة كأنهم لم يستحِموا من زمن.

استأذن الصافي من صديقه واستجاب لدعوة عبد المنعم على المقهى. في طريقهم إليها حلقات السمك في مواجهة النهر، الصيادون يرصّون طاولات السمك، وأصوات صبية المعلمين تنادي بالمَبيع وتحدد الأسعار، وآخرون يدقون الثلج ويغطون به الطاولات قبل سفرها، وعربات كارو محملة بأجولة الملح المجروش لزوم التمليح. طاولات البوري مُنشَّرة في الشمس، يفوتونه قبل تمليحه، سدوا أنوفهم فأطلق الصافي قهقهة عالية:

- مالكو يا بهاوات؟ أُمال لما تكملوا تعليمكم وتبقوا أفندية بصحيح هتعملوا إيه؟ عيشوا عيشة أهاليكم!

تشاغل منعم بشراء البقسماط والزبادي ليقطع تعليقات الصافي اللاذعة، عناقيد العنب تَبْرُزُ من بين المربعات الخشب لتعريشة القهوة، تحثُّهم على قطفها، من آخرها تفوح رائحة الريحان، وصبي القهوجي يرش إصيصه بالماء، أشعة الشمس تتخلل أوراق العنب وتنفذ إلى الأرضية المبلطة والمفروشة بنشارة الخشب الناعمة، متراقصة من

بقعـة إلى أخـرى.

يرتشـف الصـافي الشـاي محدثًـا صوتًـا لمزمزتـه، ينظـر إلى أخيـه وصاحبيـه:

- الشاي بالنعناع على القهوة دي ومن إيد أمي وبس.

- إنت بتيجي هنا كتير؟

- مـا تعـدش، شـغلي هنـاء أنتظـر العربيـة لمـا تحمـل، شـوفت الـلي كان معايـا في حمـام عـزوز؟ هـو دا شريـكي ع العربيـة النقـل، بنريـح بعـض عليهـا.

- أحـلى حاجـة فيـك إنـك عمـلي، طبعًـا أمـي ماتعرفـش حاجة عـن النقل؟

- وغـلاوة الحاجـة حُسـنة أبـدًا، عارفـة يـا عـم ومسـاعدة في الفلـوس.

- خـلاص يـا صـافي، فكـر تكمـل نـص دينـك، شـحاتة قدامـه الكليـة.

يـرش شـحاتة كـوب المـاء عـلى أوراق الريحـان ويفـرغ فيـه كـوب الشـاي، يضحـك الصـافي:

- لسـه فيـك العـادة دي؟ مـا تعرفـش تـشرب الشـاي غـير لمـا تـبرده؟ وعايـزه يتجـوز يـا منعـم؟ الغريبـة انـه في لجنـة شـباب الوفـد، وتلاقيـه كمـان في القمصـان الزرقـا.

يحمر وجه شحاتة.

- خـلاص يـا شـحاتة كنـت بهـزر معـاك، في حاجـة عايـز

أفهمها، هي فِرَق القمصان الزرقا بتضرب الإنجليز وللا خصوم الوفد؟ وفيه حاجة كمان، مافيش انشقاقات جديدة الأيام دي؟

يبدو على شحاتة الضيق، يدير وجهه ناحية النيل، بينما الصافي يواصل ضحكه المستهزئ، يتدخل حسن وغمره إحساس بالشفقة على شحاتة:

- اللي يشوف كده يقول الواد خلاص خطط لجلاء الإنجليز.. إنت بقيت زعيم وللا إيه؟

يعتدل الصافي في جلسته وترتسم الجدية على وجهه الأسمر.

- فكروا كده في أحوال الوفد من نفي سعد زغلول التاني، والنفي التاني نفسه كان أساسه خلاف على زعامة المفاوضات بين سعد وعدلي.

يمر تاريخ الوفد أمامهم كأنهم لم يفكروا فيه قبل الآن.

- لو كان الوفد زي ما بتقول كده عن القمصان الزرقا، ماكانش سمح بتأليف وزارة النحاس باشا مش رئاستها، لو الوفد كله أخطاء افتكر معاركه من أجل الحياة النيابية، وسعد ومحاربته من أجل إلغاء الحماية.

- إنت فاكرني ضد الوفد؟ أبدًا، أي انتخابات صوتي للوفد، حتى الانشقاقات أدت لتكوين أحزاب جديدة، وكل حزب يقدم برنامجه، كل دا يثري الحياة البرلمانية.

أحضر إليه صبي القهوجي الشيشة، حرك بعض الحجرات

بظفره، أخذ نفسًا وشردت نظرته إلى النيل.

انفرجت أسارير شحاتة:

- إيه يا عم صافي، إنت داهية سياسية وماحدش واخد باله، يحصل اللي يحصل يا عم بس الإنجليز يغوروا من هنا.

نهض عبد المنعم يحاسب القهوجي ونادى حسن على مراكبي.

- أذان الظهر قرب، تعالوا ناخد مركب ونصلي في أبو منـدور.

قفزوا في مركب لها سقف بوص، تشق المركب طريقها بمحاذاة الشاطئ إلى بحري، قبل دورانها في الاتجاة المعاكس، يبدو على بعد عسكري إنجليزي، ما أن تمر امرأة على رأسها قفة أو بلاصي أو أي واحدة تعبره، إلا ويشير إليها بأصابع يده بحركات قبيحة، تختنق وجوههم، تكثر البريهات الحمر في المنطقة المقابلة لمعسكر الإنجليز بعد المستشفى العام.

- لازم نشوف اللي ينغص علينا فسحتنا؟

- تبقى زعيمنا وندين لك بالولاء والطاعة لو خرّجت الإنجليز يا صافي.

ضحكوا بصوتٍ عال أزاح مرارة لن ينسوها بسهولة، يجرفون المياة بأيديهم ويرشون بعضهم البعض، تحدثهم أنفسهم بالقفز في النيل، المياه دافئة ولمعة الشمس عليها

ومراكب الصيد تفرد الغزل بينها، الموج هادئ يهدهد النفوس، ملأ شحاتة يمناه وغسل وجهه وتذوق الماء، لفظه متأففًا، ضحكوا فأخذ يرشهم بالمياه.

- دي أيام التحاريق، مية البحر المالحة بتغطي على عذوبة النيل، يا دوب شهر ع الفيضان.

أمام الجامع قفزوا من المركب كأنهم صبية في المدرسة الإلزامية، يصعدون التل من ناحية وينزلون من ناحية أخرى، تثير خطواتهم الرمال، لا ينقصهم غير التدحرج على الرمل، بعد الصلاة في المسجد، وزيارة المقام، يقال إنه لأبي النضر، من أحفاد علي بن أبي طالب، أقام في المكان وكانت له بركات، ويسميه منعم الجامع ذا الشبابيك الثمانية، جلسوا في ظل الجميزة، رفع الصافي يديه وقرأ الفاتحة، التفتوا إليه وفي صوتٍ واحدٍ:

- تعرف حد مدفون ف كوم الأفراح؟

- حد معين لأ.. خالي محمد قال إن رشيد دخلت الإسلام بمعاهدة صلح مع عمرو بن العاص، وكتير من جيش العرب، كان أكتره من المدينة، حطوا الرحال هنا واتجهوا للعبادة، أهل البلد لما شافوا المسلمين عن قرب أسلموا، اتخذ المسلمون الأوائل التل ده مقبرة لهم، سموه كوم الأفراح، لأن المسلم لما يموت يفرح بلقاء ربه.

أخذ حصيات من الأرض وقذف بها النهر، وضع منعم ذراعه على كتف شحاتة متمتمًا:

- الله يفتح على خالك.

أعدت أنس لهما صينية العشاء، أصر على أن تجمعهم طبلية واحدة، تربعت عزيزة على شلتة بجوار أنس قبالة علي.

ترن الغوايش في معصم عزيزة، تطبق فمها على اللقيمات، تقطع أُنس صدر البطة وتضعه أمام العروسين، يبهت لونها وتعتصر الحسرة قلبها، وهي تلاحظه يختلس النظرات إلى عزيزة التي كلما التقت نظراتهما ابتسمت واحمر وجهها، كأنه ينتظر ابتسامتها، ولمعة عينيها المحببتين إليه، ما أن ترفعهما تحت ثقل الحياء، فتتوق نفسه إلى تقبيلهما.

تحرك الستائر على الشبابيك المشيّشة، نسمات الصيف المتعالية، بعدما لملمت الشمس لهيبها وتوارت في الأفق خلف النخيل والكثبان الرملية.

تكمل عزيزة زينتها، تقلب في قمصان نومها، تضع عليها الواحد بعد الآخر، وتلف أمام المرآة، لمحته مستندًا إلى ضلفة الباب، وعيناه تنفذان إلى عظامها، وضعت أشياءها في مكانها حبكت القمطة الحرير الحمراء المطرزة بالترتر وخرج النجف، وأناملها تضفر الشعر المنسدل في جديلة على كتفها، حط يده برفق على ضفيرتها البنية، العينان الرصاصيتان بالحاجبين المرفوعين في دهشة يوسعهما

تقبيلاً، يضمها بحنان، يداه تهدهدان كتفيها المدورين، طيعة لينة، لكنه يشعر بنفضة تنطلق من عظامها، جسدها الدفيء ينسحب برفق من حضنه، ذراعها تتخلص من قبضته، يُرجع نفضتها إلى الحياء أو التمنع، وكلاهما يزيد من شبقه. لم يتسلل إليه النوم كما تعود بعد حميمية الفراش، والإحساس بالشبع والسعادة، ينظر إلى عزيزة المتكومة في حرف السرير يرتسم على وجهها الناعم الرضاء، يهزها:

- عزيزة.. إنتي هتنامي من دلوقتي؟

تتقلب متكاسلة، فيتابع:

- قومي يا بت اسهري معانا ع السطح شوية.

وضع الشال الأحمر على كتفيها هامسًا:

- عايز أشرب الشاي من إيديكي.

وقفت بباب أُنس، وجدتها تصلي، قلبت النظر في حجرتها المرتبة، عليها صبغة من هدوء، لمبة الجاز «النمرة خمسة» على رفها، زجاجتها نظيفة تضوي مع الذُّبالة المشتعلة، تسلم أنس وتلتفت إليها مبتسمة:

- تعالي يا عزيزة.. اتفضلي اقعدي.

- معلش عايزة أعمل الشاي.. الوابور فيه جاز؟

ملأت عزيزة البراد وأشعلت أُنس الوابور، تحلّي عزيزة الشاي مستفهمة:

- كل كوباية مربعين سكر يا ست أُنس؟.. قصدي يا ست الكل؟

- قولي أُنس وخلاص.

- يا ندامتي.

- لو كنت خلفت من أول جوازي كان زمان عندي بنت قدك ويمكن أكبر.. حقتك تقولي يا امه أُنس.

تضرب عزيزة على صدرها.

- لأ.. إنتي ست الكل ومقامك على راسي.

أخذت صينية الشاي إلى السطح، أزاحت أُنس طرحة الصلاة، فردت شعرها، تطالعها بعض الشعرات البيضاء متناثرات، أسبلت عينيها، انحدرت على خديها حبات ساخنة فرطت من عينيها.

- إيه يا أُنس هتاخدي زمنك وزمن غيرك؟ إحمدي ربنا، بعت لك بت طيبة زي عزيزة تاخد بحسك، ويمكن ربنا يعمر بعيالها.

يأتيها صوت علي:

- إيه يا أُنس ناسياني النهارده؟ فين قوالح الشيشة؟

تلف شعرها كعكة وتحبك المدورة البيضاء، وتعقد طرفيها المطرزين بالخيوط الصوف على شكل كريات صغيرة، تمسح خديها.

أعدت راكية وجردت كيزان الذرة من خضارها، تفوح

رائحة الذرة وطقطقات حباته، علي بقفطانه البوبلين الأزرق يسند ظهره إلى الحائط فاردًا ساقيه، أخرج علبة دخان أخذ منها بأطراف أصابعه، ووضع في ورقة بفرة، برمها وبطرف لسانه لصقها، يثني ركبته ويريح عليها يده باللفافة، ينفض رمادها بعيدًا عن الحصيرة السمر، النجوم سابحة في السماء الصافية، يسعل سعلة خفيفة:

- تعرفي تحكي حدوته يا عزيزة.

- ماعرفش.

تضحك وتضع يدها على فمها ثم تواصل.

- كنت ف سنة تالتة إلزامي، قالوا في المدرسة الملك فؤاد جاي إدكو، حفّظونا نشيد، والنبي كنت فاكراه لغاية قريب، يوم الزيارة أخدت مخلتي ووقفت مع زمايلي قدام المحطة، صابحة بنت عمتي ف سنة أولى، مخلتها محشية أكل؛ عيش، وجبنة، ومحشي ورق بطاطا فاضل من العشا، قعدت جنبي وطلّعت الأكل، العيال شافوه، من صباحية ربنا واقفين في الشمس، هجموا على مخلتها ودول يحدفوه لدول، وأنا وهيّ ندور ع المخلة ونعيّط، نضرب العيال ويضربونا، أخويا مصطفى لمحنا، وللا حد قال له؟ مش عارفة، المهم خلصنا من العيال، إحنا لقيناه قدامنا طلعنا نجري ع الدار، لا شفنا الملك ولا سألنا جِه وللا لأ؟ ومن يومها مارحتش المدرسة، والأهم أمي فرشت لي أوضة لوحدي، ماعادتش تاخدني ف حضنها وتحكي عن الجنّية اللي في الطاحونة، ولا الغول وعنيه الحمرا، سألت

صابحة عن الحواديت قالت: يا بت دي تخاريف ولو بالليل افتكرتيهم اقري الفاتحة.

وضعت أُنس أمامها الشاي والذرة المشوية.

- كُلي يا عزيزة الدرة ح يبرد.

غيرت أنس ماء الشيشة، وعلي رصّ الجمرات فوق المعسل.

- فاكرة يا أنس لما قلت لك احكي لي حدوتة؟!

تضحك وتلمع عيناها بحلاوة الذكرى، عزيزة متشوقة

- أقصر حكاية سمعتها، قالوا إيه؟ بصّت باهتمام وقالت تبقى جدع، وابن بحر النيل بصحيح لو عرفت مين اللي قالوا.. زاغت من قدامي، كنت قاعد ولابس القفطان قمت أجري وراها.. اتكعبلت وخبطت الطبلية، عملت صوت ودربكة.. سمعت أمي من طقة السلم

- اهمد يا وله.. يا ريت كل ده بفايدة!

وأنس إيدها على حنكها وفطسانة من الضحك.

***

تخدش قرقرة الجوزة سكون الليل، يصاحبها صوت كروان يرفرف قرب علي، يلتفت إليه فيبتعد، يتابعه بعينين نصف مفتوحتين، تتصفحان أوراق حياته وإن اصفرّت حوافُها زادها القِدم جلاوة، تعجز أفخم شاشة سينما كالتي رآها في الإسكندرية عن عرض شريط ذكرياته، لأنه لا وجود له إلا في ذاكرته، ولا تراه غير عينيه المواربتين على بصيص الذكرى.

يبدأ من البداية..

قبل البداية

عندما ترك أبوه بيته في الإسكندرية، وكان ربٌ لأسرة وأبٌ لصبية، على أثر خلاف بينه وبين أهل زوجته على إدارة محل أقمشة، مشاركة بين زوجته وأخواتها، طلب منها أن ترافقه في ترحاله إلى دسوق، رفضت، هددها بالزواج بأخرى، لم تهتم، وكان المقدور الذي من نصيبه، وكان علي أكبر أبنائه من الزوجة الثانية.

يهدد الزوجة الثانية بالسفر إلى زوجته الأولى وتركها بلا عائل، فكانت تطاوعه في ترحاله.

عندما ترك دسوق بِصُرّة الأقمشة هائمًا على وجهه من بلد إلى بلد آخر، يستقر بها في قرية أو مدينة، ويأخذ صرته كل طلوع شمس يلف العزب بشوار العرايس من أثواب الحرير والعبك والبفتة، ويعود في صفار الشمس، في جلستها على عتبة غرفتها المؤجرة تحدد علامة الشمس، تقدر قرب حضوره فتشعل نار كانونها لتعد له الماء الدافئ، ينقع فيه قدميه المتورمتين من كثرة اللف وعلامة القبقاب الخشب

في كعبيه المشققتين، يعلق في رقبته وذراعه اليسرى مِخلاته، يحشوها قبل طلوع الشمس بكسرات الخبز الذي تعده له من دقيق القمح والذرة وقطعة جبن قريش، يشم رائحتها قبل الأكل، فما كان أكره عليه من رائحتها عندما تتغير، فيستبدل بها من زبائنه قطعة صابحة الرائحة، أو من دكان العزبة قطعة حلاوة طحينية، يطوي في مِخلاته منديلاً محلاويًا كبيرًا، يصره على البيض والحلبة الخضرة في فروعها والأرز الأبيض وأرز الشعير، يأخذهم بدل النقود أو تكملة على القروش الحمر والملاليم، تسمع دبة قدميه من قبل البيت، تتخطى عتبة غرفتها وحوش البيت وتلقاه عند باب الدار وهو يسمع رنة خلخالها الفضة، يتنحنح، تجري عليه، يناولها المخلاة، تمد يدها إلى الصرة المعلقة في المتر الزان الذي حفر مكانه في كتفه اليمنى فيضحك:

- هو أنا مستغني عنك؟ لو شيلتيها تفطسي.

قاده ترحاله إلى رشيد، واستطاع بوجهه البشوش وخبرته في معاملة الناس أن يجد له في وكالة القبودان موطئ قدم، ويستريح من اللف على العزب، ويكون له زبون يقصده إلى فرشة بجوار جامع الصامت.

***

في غرفة رطبة دهنها أبوه وجه جير يداري به تآكل جدرانها المملحة، تزورها الشمس في الصيف بعد العصر لحظات، خلال طاقتيها المعلقتين قرب السقف الخشب بحارة النادي حي قبلي- كان مولده.

أبوه يحدد دخوله رشيد بعد نفي عرابي، وعندما قيل له إن عرابي جاء رشيد واستقبله علوان بك شيخ مشايخ التجار في بيته بشارع دهليز الملك، تعجب من عدم نفيه مع عرابي، سرعان ما هز رأسه:

- أهو ماسك السوق وما يقدرش واحد مستقوي نفسه يرفع صوته أو إيده ع البياعين، والوكالات ماشية زي الساعة، ومافيش واحد من التجار الأغراب اللي نايمين فيها اشتكى، وإن حصلت سرقة تبقى منهم فيهم.

ويحدد مولد ابنه علي بقرار تحويل رشيد من محافظة إلى مركز سنة ١٨٩٥ م ويتعجب.

- أسمع إن المدن تكبر مش بعد ما تكبر تصغر! يعني الإنجليز بيخلصوا تار هزيمتهم في حملة فريزر دلوقتي، كانوا اتشطروا ساعة ما وقعوا في أيادي الرشايدة زي الفراخ الدايخة!

أحيانا يُرجِع ما حل برشيد من تهميش إلى وجه ابنه التعيس على المدينة، السعيد على أبيه، فمن مولده بدأ يخزن بضاعته ولا ينتظر بيع ثوب ليشتري غيره.

يشب علي في رجليه، يجرجر في قفطان يقصر عليه يومًا

بعد يوم، يتركه بجوار فرشه ويتجول في سوق الحدادين ووكالة الحنة وجامع زغلول.

النافذتان الصغيرتان لحجرتهم يتسرب منهما الهواء والضوء وصوت الجارات، عندما يقفن على أعتاب أبوابهن، يتبادلن أخبار البيوت من زواج وخناقات عائلية، وعندما يسمعن نحنحة رجل يدخلن مسرعات.

يتشاغل علي بعدّ ألواح السقف ومقارنتها بالعروق، والسهم الخارج من الحائط إلى منتصف السقف، كم حلم به يسقط وينهار السقف ومعه ساكنو الدور العلوي فوق فراشه.

تعد أمه هي الأخرى صُرة الحرير بأنواعه، تبيعها في المنازل، يرافقها إلى بيوت الخياطات المزدحمة بالفتيات الصغيرات يتعلمن الحياكة، كل واحدة منهمكة في عملها، ومن تتكاسل تعايرها الأخريات بأنها لن تتعلم صنعة ولن تجد من يتزوجها، تأتي البنات إلى أمه بقمطات الرأس المطرزة، تشتريها وتبيعها في البيوت، لا بد للفتاة من إتقان صنعة يدوية.

أمه هي الأخرى علمتها الجارات صنعة عمل الزرايب، التي يحتاجها الخياط في عمل الصديري والجلابية الرجالي والسروال أبو كمر، تمكنت من صنعتها وتبينت ذلك عندما درّت عليها دخلاً بسيطًا، لكنه عندها وفير.

حارة النادي أكثر ساكنيها عربجية، يمتلكون عربات الكارو والحناطير، لهم أجسام قوية وهيئة ضخمة وأصوات

جِعجاعة، يتعاركون لأتفه الأسباب، كأن يُحمّل أحدهم عربته قبل دورها في الوكالة، أو مع الجيران إذا لم ينظفوا أمام البيوت، وأكثرها تبدأ من عراك الأولاد مع بعضهم، فلا تلبث العركة أن تنتقل إلى الأهالي، بينما الصغار يواصلون لعبهم.

من سكان الحارة بعض النجارين صانعي كراسي الحمام والطبليات والسوَاقي، ومَنَاخليّ يصنع الغرابيل لزوم الخبيز الذي تفج رائحته في أزقة الحارة، مصحوبة بروائح الأطعمة قبل المغرب، وإن كانت خالية من الدسم في معظم أيام الأسبوع، فكم تبادلت أمه أطباق العدس والبصارة والكِشك والعاشورة مع الجيران.

أكثر ما يخيفه في الحارة العراك، عندما ينشب الخلاف وتتعالى الأصوات، يليها الضرب بالعِصيّ وينتهي بالقتل أو الإصابات البالغة، ويتوالى العراك لأخذ الثأر من منتصري المعركة الأولى. علي ورفاقه منقسمون إلى فريقين وينتظرون المعركة المقبلة، عندما تبدأ يتوارون وينظرونها من ثقوب الأبواب والمشربيات وشقوق الجدران. من ينهزم فريقه أو يقع تحت وطأة الجروح يعيّر بغباء بطله وضعفه، في أحلامه كان يُوقع بهم الهزائم، وحين يرى المتعاركين في الشارع يفر من أمامهم وتزداد ضربات قلبه.

شيء آخر كان يخفيه؛ حكايات أمه عن العفاريت، وتأكيدها أنه في آخر الحارة يقف حصان مقطوع الرأس، من بعد العشاء إلى أذان الفجر، وأنه حصان واحد من المماليك قتله

واحد من الأرناؤوط، ومن يومها وهو واقف في نفس المكان ينتظر أحدًا يأخذ ثأر المملوك، ينتفض عندما توقظه في الليل حبسة البول، ويخرج من الحجرة إلى الحمام على بعد خطوات، ويعود سريعًا يلقى بنفسه على فرشته ويلف الغطاء حوله، أكد له أحد رفاقه أن أباه في ليلة مظلمة رأى عفريتًا يسمونه العُون، واقفًا في مدخل الحارة من جهة السوق، وصفه له أبوه ووصفه هو لعلي بأنه يسد مدخل الحارة طولاً وعرضًا، التهمت الحكايات خياله، وكلما كبر كسر خوفه واجتاز مدخل الحارة في الليل، ولم يحظ بلقاء العون.

***

يستيقظ في الليل وأمه تصب الماء من بزبوز الإبريق فوق يدى أبيه المتمتم بالدعاء، يقطع دعاءه مناديًا عليه ويكون مستيقظًا ينتظر، فذلك يعني رضاه، وعندما يغضب منه لا ينادي، ويبقى علي تحت الغطاء ينتظر خروج أبيه ونداء أمه ليلحق به في الجامع، يخرجان على صوت الأذان ويبدأ من جامع زغلول ويتبعه الرباط والصامت، وتنجلي الأصوات بالأذان من كل اتجاه.

بعد الإفطار يرافق أباه إلى فرشه أمام جامع الصامت، ويدخل كتّاب الجامع، ينشغل أبوه بالبيع وهو ينسلّ بين الطلبة الأغراب في جامع زغلول، يسمع حكاياتهم ونوادرهم،

سـاعدوه في حفـظ القـرآن والتفسـير، وكـم تمـنى أن يكـون مثلهـم عـلى علـم بالشـيخ محمـد عبـده والزعيـم مصطفـى كامـل، لكـن مـن أيـن يـأتي بالصـبر لتعلـم القـراءة والكتابـة؟ استمرّ في الحفـظ وقنـع مـن الهجـاء بكتابـة اسـمه، يُرجـع كَسـلَه في تحصيـل العلـم إلى رفـاق الحـارة، الذيـن شـجعهم أهلوهـم عـلى العمـل عنـد المعلمـين، وأخـذ يوميـات لا تتعـدى المليـم أو النّكلـة، لكنهـم في النهايـة سـيتعلمون صنعـة تـدر عليهـم دخـلاً، وعندمـا يـرون منـه ندمًـا لـترك العلـم يقولـون:

- يـا عـم التـوب دا مـش توبنـا، إحنـا أولاد معلمـين، سـيب العَـلام للأفنديـة.

لـم يعنفـه أبـوه عـلى تـرك العلـم، كان غضبـه إذا قـصر في الحفـظ قائـلاً:

- يـروح يتعلـم صنعـه زي مـا يحـب بـس مايكسـلش في حفـظ القرآن.

مـرت الأيـام وبقيـت المِزولـة في جامـع زغلـول تذكـره أن وقـت التعليـم قـد مـضى، كان الميقـاتي العامـل عليهـا يحـدد بهـا مواعيـد الأذان، وكلمـا مـر أذان بعـدت الخطـى بينـه وبـين سـن التعلـم.

يـرى بطـن أمـه يتكـور أمامهـا ثـم يهبـط بصرخـة مولـودة، يخـاف الاقـتراب منهـا يداعبهـا مـن بعيـد، ثـم يعتـاد عليهـا ويأخذهـا بـين يديـه يهدهدهـا وأمـه تعـد طبليـة العشـاء، يسـأل لهـا عنـد العطاريـن عـن توليفـة أعشـاب تريـح معدتهـا مـن المغـص، يُركبهـا عـلى كتفـه ويخـرج بهـا إلى الحـارة، بينمـا

أمه تضع مولودة جديدة ويفعل معها ما فعل مع الأولى، يأخذ بيديها يعلمها المشي على عتبة الدار، وأمه تضع أخاهم الصغير محمد، تنام رتيبة ونفيسة بجوار علي، ومحمد بجوار أبويه، بعد صلاة العشاء يشتري الهريسة بيوميته ويوقظ أختيه.

اشترى أبوه بيتا بشارع عدس على بعد خطوات من جامع الإدفيني، يختلف عن مندرة حارة النادي، يتكون من طابقين، الشبابيك طويلة مكونة من شيش وزجاج وشرّاعة في أعلى الشباك، النوافذ المفتوحة على السلم من الزجاج الملون، الطابق العلوي ثلاث غرف نوم بينها صالة، الطابق الأرضي مندرة مسافرين يفتحها أبوه للتجار عندما يأتون بالبضائع، ولأهل أمه عندما يجيئون لزيارتهم، غرفة أخرى وضع بها أبوه بضاعته من الأقمشة وثالثة لجلوسهم وطعامهم، يلي مدخل البيت حناية أرضيتها إسمنت، تفرشها أمه بالأجولة الخيش، تجهزها لعمل الكفتة..

كفتة اللحم والجمبري في الصلّاية الخشب ذات اليد النحاس الثقيلة، عرفت من الجارات في الحارة أن الصلاية من الأسلحة المستخدمة في هزيمة الإنجليز، تزعمت امرأة تدعى خديجة الجبرتية النساء في الانقضاض على عساكر الإنجليز بيد الصلاية، وحمستهم بأن العار سيقعد لهن، اعتزّت بيد الصلاية التي اتقت بها النساء العار، ولم يقفن مكتوفات الأيدي ينتظرن أن يقتل الإنجليز رجالهن أو يأخذونهن سبايا، وبعدها يأتي الأرناؤوط ويقولون «رشيد دار حرب» ويسلبون وينهبون بقايا ما ترك الإنجليز، لن يكون

هـذا مـا دام لـكل بيـت أدوات دفاعـه.

اندمجـت أمـه مـع الجـارات في البيـت الجديـد، ترتـب البيـت وتزينـه مثلهـن، تشـتغل بأعمالهـن، غـير الزرايـر تعلمـت حرفـة تضفـير الخـوص المنجـور مـن جريـد النخـل، ويأخـذه المعلـم يسـتخدمه في عمـل الشـلق والبرانيـط والأسـبتة.

أختـاه تنـاولان الأم الأشـياء وهـي جالسـة تطبـخ أمـام الكانـون، تتحـركان في البيـت وعـلى كتـف كل واحـدة عروسـتها الخِـرَق، تلعبـان مـع بنـات الحـارة، ترتاحـان لأُنـس ابنـة صاحـب السرجـة، أصغـر إخوتهـا المتزوجـين في بيـوت أخـرى، وهـي الوحيـدة مـع أمهـا وأبيهـا، يـسرن الثلاثـة أُنـس أطولهن لا يفترقـن إلا عنـد النـوم، وعندمـا تسـتيقظ البنتـان بآثـار النـوم تجريـان إلى أُنـس.

***

عـرف النيـل مـع رفاقـه، وشـق الثـوب الـذي دثّرتـه بـه أمـه في نسـجها الحكايـات عـن عـروس البحـر خانقـة الصبيـة، رآهـا في أحلامـه تصاحبـه في جزيـرة الذهـب وتعرّفـه عـلى ملـوك البحار، عندمـا تـرك جسـده للمـوج الهـادئ وأرخـاه في حضـن موجـة تسـلمه لأخـرى، سـبح إلى الـبر الـشرقي وعـاد مـن دون تعـب، بالـذات في أيـام التحاريـق قبـل الفيضـان، جلـو صفحـة النيـل وهدوؤهـا يُغـري بالسـباحة كأنـه الهـدوء الذي يسـبق العاصفة،

يـأتي الفيضـان مجتاحًـا الشـوارع مغرقًـا إياهـا بالطمـي والميـاه المحمَـرّة، تنحـسر مـن الشـوارع شـيئًا فشـيئًا بعدمـا غسـلها النيـل وأطعـم السردين.

عمـل بالقفاصـة، ينهـي يوميتـه قبـل المغـرب، تأخـذه قدمـاه إلى النيـل، يتأمـل الصيادين يفـردون الشـباك بـين المراكـب، ينزلـون طوايـل السردين المفضـض، ألحقـه أبـوه بخيـاط بلـدي عنـد زاويـة العقادين، يتركـه ويتجـه إلى النيـل، ألح عـلى أبيه أن يلحقـه صيـادًا عنـد أحـد معارفـه، اشـترط عليـه أبـوه ألا يسـمع شـكوى منـه بعـد ذلـك، يسـتقبل النيـل قبـل طلـوع الشـمس، يطـرح الشِّـباك، يلمـه بمسـاعدة زملائـه، يهـب الوهّـاب البلطـي والبـوري الصايـم صيـد الليـل.

روى الصيـادون لـه حكايـات تفـوق حكايـات أمـه، النيـل والليـل والهـواء والسـماء بقمرهـا ونجومهـا وشمسـها وصفائهـا وغيومهـا، وهـم يختلقـون الحكايـات، والغريـب والأهـم أنهـم يصدقونهـا.

عندمـا نبـت الليمـون في صـدري البنتـين، طرقت أيدي النسـاء مـن أهـل الخُطَّـاب بابهمـا، وفي يُـسر كان إتمـام زواجهمـا، رتيبة لقفَّـاص ونفيسـة لنجَّار.

تشـير عليـه أمـه بالـزواج بصاحبـة أختيـه، تعلـل بأنـه لـم يرهـا منـذ كانـت تلعـب مـع أختيـه، اصطحبتـه أمـه لزيارتهـم، عندمـا رآهـا دخلـت قلبـه، فلهـا ابتسـامة تـضيء الوجـه ونظـرة رضـا تضفـي عـلى وجههـا سـماحة، وكمـا تزوجـت أختـاه بسرعـة تـزوج هـو الآخـر في غرفـة ببيـت أسرتـه بشـارع عـدس، قـدم

ما ادخره من عمله بعد المساعدة في جهاز البنتين مهرًا، وجهز له أبوه حجرة نومه، وأمه قدمت شبكة العروسة، خلخال ذهب، فحموه ميسور الحال لكنه لم يغالِ في طلباته، فأحاط الود علاقتهما ظاهرها وباطنها.

أيقظه أبوه من سعادته على خبر رحيله إلى زوجته الأولى وأولاده في الإسكندرية، حاول إثناءه عن عزمه فرفض:

- حاسس بدنو الأجل.. عايز أموت في فرشتي.

- هنا بيتك.

- لمّا الواحد بيكبر يفكر في البداية، وبدايتي هناك، وإن كان في العمر بقية سأزوركم، أنت هنا مكاني.

تظاهرت أمه بعدم الاهتمام لفراق رجلها، تظاهرها لم يمنع بريق الحياة من أن ينطفئ في عينيها، تتلفع بصمتها، وإن تكلمت انسابت الأمثال بالتعديد على حالها:

- يا مآمنة للرجال يا مآمنة للميّه في الغربال.. أتاري المتغطي به عريان.. يقول الناس ضل راجل ولا ضل حيطة، أهو مشي الراجل وفضلت الحيطة!

أي فراغ يخلفه الأب، يدخل علي حجرة أبيه كعادته عندما يأتي من عمله، حيث جِلسته المفضلة فوق الكنبة بجوار السرير، يسند ظهره إلى مسند والسبحة في يده والشاشة البيضاء تحيط رأسه ورقبته.

اشتاق إليه، ذهب يطمئن عليه، زوجته الأولى وإخوته أكرموا وفادته، في رشيد هو الأخ الكبير وفي بيت أبيه الآخر

الصغير، كأنه اثنان، في رشيد يسد غيبة أبيه وفي الإسكندرية إخوته الكبار يقدمون له النصح، يحتار في أمر أبيه، مهما كان الأمر، كيف يترك زوجته، إنها جميلة رغم تقدم العمر، قوية ربت أبناءها وحدها وعلمتهم احترام الأب الغائب، لسانه لا يطاوعه أن يقول عن أبيه المتخلي عن أسرته، لا جدوى من الأسئلة والأجوبة، وهذا السؤال لا يأتي منه، فهو النتيجة الحية لهذا التخلي.

فاجأه شيخ الحارة بالجهادية، يتبعثر أمن أمه، «الحيطة» التي لم يبق لها غير ظلها انهارت هي الأخرى وكادت تتعرى من آخر ساتر يظلها:

- روح لأبوك، يمكن إخواتك يعرفوا ناس كبرات في إسكندرية.

انتهت المشكلة ببيع البيت، وأكمل إخوته من أبيه عليه لدفع البدالية، عاشوا كما كانوا في بيتهم، مع فارق أنهم أصبحوا له مستأجرين، قنعت أمه بالساتر المتبقي لها:

- فداك يابني.. أكحل عيني برؤيتك عندي بالدنيا.

***

أُنس بإشراقة وجهها وخفة ظلها، تطمئن قلب علي بأن الحياة ستفرد له ذراعيها، مع أنها لم تنجُ من تلميحات أمه بأن قدمها على البيت كان شؤمًا، تسر بتلميحاتها إلى

البنتين عندما تأتيان لزيارتها، لا يعجبهما التجني على أُنس وتردان غيبتها.

- أبويا طول عمره يقول هييجي يوم وأسافر، والجهادية كاس ودايـر، أُنس ذنبها إيه.

تسأل ابنها عن تأخر الحمل الذي أصبح شغلها الشاغل، تستضيف الدايات لعمل الوصفات لأُنس، لا تبدي أنس الغضب وإن كانت الكلمات تجرحها، والسؤال المتكرر ومصمصة شفتي حماتها وتحسرها على نصيب ابنها، ومقارنتها بزوجات رفاقه اللائي تحسب لهن من ليلة الدخلة، وقبل إتمام العام يحملن عيالهن على أكتافهن.

تصر أنس عذاباتها وتربط عليها في قاع النفس، يمتص علي عذابها وضيقها بحنانه، ويسألها ألا تغضب من أمه، ترد بهدوء:

- يحق لها، نفسها تشوف حفيدها، الشوق يعمل أكتر من كده، وأنا كمان نفسي أشوف عيالي، وانت مش نفسك؟!

- مش هاقول لأ، الأهم أعمل لابني حاجة الأول، نفسي يبقى عندي مركب وغزل..

تقاطعه بحركتها الخفيفة من جلستها على الأريكة العربية إلى ضلفة دولابها ذات المرايا مصدفة الإطار، تخرج صندوق موشى بالصدف يتدلى منه قفل ذهب، تفتحه وتضعه فوق مسند الكنبة، يحملق في الصندوق المفتوح كأنه مغارة علي بابا، وقعت عيناه من قبل على عقدها الزيتون أو خاتم

وأحيانا غويشة عريضة غريبة النقشة، غير القصبة التي تزين بها البرقع، والخلخال هدية أمه، وقد جمعتها قبل بيع البيت وصرتها في منديل يدها، أزاح يدها:

- دول قشة ف بحر.. خليهم.

رفع عينيه عن الصندوق، أجابته:

- أمي نداتني الصبحية بعد انت ما اتكلت على الله، لقيت أبويا كمان قاعد، استغربت، عمر أبويا الساعة دي ما يسيب السرجة، مسكت أمي الصندوق وفتحته قُدَّام أبويا، وقالت لي امسكي، الدهب من حقك، قولت لها لأ يا امه ما عاش اللي يلبس دهبك، دمعت ووشها احمرّ، طبطبت عليها، قالت لأبويا ونصيبها في البيت كمان، اداني جنيهات عليها الجملان، اداني في الأول اتنين، أمي زغرت في وشه اداني واحد كمان، وقال اخواتك الرجالة كل واحد أخد بيت ملك وانتي دهب أمك، ودا نصيبك في البيت هنا، يعني أتجوز ماحدش ليه عندي حاجة، قلبي انفطر على أمي ودموعها على خدها، إديت لأمي الفلوس والدهب ومشيت، نادت عليّا وصوتها مخنوق من العَبرة، وصممت آخدهم وأبويا عطينا ضهره، بعد العصر عملت رز بلبن، أخدت لها طبق ورحت أشوفها، فرحت بدخلتي عليها وقالت المال دا حقك يا بت.

وضعت يدها في صدرها وأخرجتها بالجنيهات، وضعتها فوق الذهب، يتردد نظر علي بينها وبين الصندوق بذهبه وجنيهاته:

- والمفروض أعمل إيه؟! المفروض أزودهم لك.

- تزودهم بعملك، ما فيش حجة دلوقتي، اشتري المركب والغزل.

يبيع الذهب ويشتري الخشب ونجار المراكب يصنعه قاربًا، وأنس تشتري الخيوط وتغزل الشبك، أنهى النقاش دهان المركب وسأل علي عن اسمها، احتار، سأل أنس عن الاسم الذي تحبه الدلوعة.. السنيورة.. عروسة البحر.

قالت:

- وردة.. سميها وردة النيل، أبويا قال الأجانب بيقولوا على رشيد روزيتا.

اشترى أرضًا أمام المحكمة وبنى البيت على نظام بيتهم في شارع عدس، مع اختلاف أن الدور الأرضي دكاكين وحجرة لأمه وأخيه المراهق، والدور العلوي شقة ثلاث غرف يجاورها سطح به حجرة الخبيز وحجرة طيور، وقاعدة لهم في الصيف.

يخلع قفطانه ويبقى بالصديري و«اللباس أبو كمر» والشملة الحمراء على الوسط، يفترش رصيف المحكمة وجنبه كوم الغزل يرتقه بالمنقاش الخشب، يرفع عينيه إلى الشيش الموارب، لا يتبين من ورائه، قلبه يحدثه، عينا أنس الباسمتان ترمقانه في حنوّ.

عادت أمه لسابق حديثها عن الخلفة، لم يكن بالوصفات هذه المرة لكن بتزويجه، فالبيت واسع وهو ميسور الحال

يـرد عليها:

- يـا امـه قدامنـا دلوقـتي بداليـة محمـد وجـوازه، أبـوس إيـدك مـا تعكريـش دم أُنـس.

تراقـب أُنـس انفراجـت شـفتيه، سـيقولها، تعبت مـن الانتظار، طلبـت منـه أن يـتزوج، سـتتعذب وعذابهـا الحالي ونظـرة حماتها ولهفتـه عـلى أولاد أختيـه، إن نـزل الصبـح قبـل مجيئهـم يـترك مصروفهـم مـع أُنـس، وإن وجـدوه نائمًـا أيقظـوه، في حنانـه عليهـم يعتـصر قلبهـا، في ضمتـه لهـم رسـالة: أنـتِ عاقـر.. اتركيـه ينجـب مـن غـيركِ، حـرام عليـكِ.

يسـتأجر لأخيـه بيتًـا قريبًـا منهـم ويدفـع لـه البداليـة ويشـتغل بالتجـارة كأبيـه، وقبـل أن يمـر عـام عـلى زواجـه كان ابنـه في حجـر جدتـه يفـرح قلبهـا، قبـل أن توافيهـا المنيـة، واسـتمر إلحـاح أنـس عليـه بالـزواج.

-٥-

أُنس وراء الشيش الموارب تنتظر قدوم علي من المسراح، يتوافد الصيادون من الشوارع المؤدية للنهر، والمتعامدة على شارع الجمهورية، منهم من يحمل دلوًا أو مِشَّنة ومنهم من يئن تحت كوم غزل يقطر ماءً، بائعو الأسماك المتجولون يدفعون عربات اليد بعجلاتها الخشب، يسبقها أزير الاحتكاك بأرضية الشارع المبلط ببلاط بازلت ترابي اللون، أصوات الباعة تعلو فوق الأزير، يعلنون عن بضاعتهم من سردين، وبلطي، وأم الخلول، منهم من يركن عربته على جنب، ويُخرج الثلج من مخبأ العربة، يدقه وينثره فوق الطاولات ويلف الثلج المتبقي في جوال خيش ويعيده داخل العربة.

بعض الصبية يرتدون الزي المدرسي قميصًا وسراويل قصيرة وطربوشًا ومخلاةً عبكا، بعضهم يتبادل ركل الحصى بالأحذية البالية، ومن تعلق في حنطور أو عربة كارو وزملاؤه يصيحون:

- كرباج ورا.

تبتسم أُنس:

- الله يجازيكم عيال!

تميز صوت علي يقترب من البيت، تسرع إلى الداخل،

ترفع إناء الماء الساخن من فوق الكانون، وتضعه في الحمام بجوار الماء البارد، تعلّق غياره النظيف، تنادي عزيزة:

- يللا يا عزيزة صوت علي في الشارع.

لا ترد عليها، تسرع لاستقباله على السلم، تأخذ منه مِشَنَّة بها سردين وشيلان، تعد الفطور وتنادي عزيزة:

- يللا بلاش كسل.

- مش قادرة أشوف الأكل.

تنهض متكاسلة، يرمقها علي مُعنفًا:

- إيه يا برنسيسة مابتتعبيش م النوم؟!

لا يستطيع حيال عينيها إلا أن يبتسم، وإن كان يريد إظهار الغضب، لكن ماذا يفعل في تلك المساحة الواسعة التي تتربع عليها تنفرد وتنثني كما تشاء؟ يتذكر أُنس فيتماسك ويلقي اللوم عليها:

- إنتي اللي مدلعاها، وشايلة عنها شغل البيت.

- الحق نفسها في الطبيخ حلو.

- يعني أطلع أنا منها؟.. طيب.

تفتت عزيزة الخبز وتمضغ القليل، لقمة وراء لقمة وقامت تجرى، يرمقها علي بحنو.

- هي مالها، تعبانة.

تبتسم أُنس في مكر:

- هي مش قالت لك من يومين نفسها ف سمكة موسى؟

تتوحد نظرته المستفهمة مع نظرة أُنس الباسمة المُبَشِّرة.

- قصدك إنها.. ونتأكد ازاي؟

قام إليها جذبته أُنس من يده:

- تعالى وأنا أحكيلك، امبارح العصرية كانت أختك نفيسة هنا، قلت لها تبعت لنا الداية جارتها علشان نتأكد، النهارده بشرتنا انها تمت الشهرين.

تشرد نظرته كأن بابًا طال وقوفه أمامه، يطرقه بهدوء، بنفاد صبر، يئس من طرقه، يعود ويحاول، ينفتح فجأة بتيار هواء، يدور به في دوامةٍ من نشوة، يتشبث بالأشياء من حوله ليعود إلى نفسه، أُنس في قعدتها بجواره تؤكد أن عزيزة حامل، سيكون أبًا وتصبح له ذرية، هو لا يعيبه شيء، لم يكن العيب منه.

يدخل إلى عزيزة، تعتدل جالسة من نومها:

- خليكي.. عايزة حاجة أجيبها لِك.

لا يقاوم الدلال في عينيها، يغمرها بالقبلات، يحتضنها بفرحة وقوة، تلتقط أذنيه أنفاسها وأناتها، يربت على ذراعيها وظهرها من أثر تطويقه.

- خلاص عارف إنك تعبانه.

تضع رأسها بدلال على صدره هامسة:

- لأ.. خليك جنبي.

يغمض عينيه مستسلمًا لدفئها.

***

تهيأ الصيادون على اللوتسيين، لصيد العصاري، وتمسية في النيل. تأخر في الحضور إليهم. بعثوا إليه بمن يتعجله.

- يا عم دا عريس.

- لو كنت مكانه كنت قعدت جنب العروسة الجديدة.

- كان لسه في البحر الصبح، هو عنده الصغار بيعيطوا.

- يوم ما بنى البيت حط في العتبة جنيهات دهب.

- حرام عليكم دا عمره ماتأخر عن حد فيكم!

- إحنا غلطنا فيه؟!

- عينيكم تفلق الحجر.

جاء من ذهب لاستعجاله، قفز في المركب.

- الريس هيريح النهارده.. اطلعوا انتو.

بعصى من خشب مخصصة لدفع المراكب في النيل تشبه المجاديف لكنها أطول وأسطوانية الشكل تسمى (البصابنجات)، يرفعون اللوتسيين، ينزلقان في النهر مهتَّكَيْنِ

صفـاء صفحتـه، معتديـيْنِ عـلى هدوئـه.

تلمـس طريقـه إلى قاربـه وردة النيـل، يجتمـع فيـه مـع أصحابـه، إذا لـم يجـدوه في البيـت أو المِـسراح عرفـوا أنـه هنـا ينتظرهـم، كلمـا رأى أحـد الصيادِيـن ضغـط العمامـة عـلى رأسـه، يخـشى أن تظهـر سـوالفه المصبوغـة، أكـثر مـا كان يخشـاه أن تلاحظـه أُنـس، ضبـط العمامـة أمـام المـرآة في غرفـة عزيـزة، وفي خروجـه أسرع الخطـا نحـو الشـارع.

غريبـة الخطـوات عـلى قدميـه، كأنهـا ليسـت هـي المحفوظـة والمعتـادة، توقـف الزمـن عنـد بدايـة الـزواج بأُنـس، مـع اختـلاف بسـيط، بـدل أُنـس عزيـزة.

يـاه يـا عـلي.. توقـع السـنين دي مـن فـوق صـدرك! توديهـا فـين؟ أي بحـر هيبلعهـا؟!

ياخـد شرهـا فقرهـا ويبقـي ثمرتهـا: الريَّـس.. المركـب.. اللوتـسي.. البيـت.. عزيـزة بحملهـا.

تومض صورة أُنس بذاكرته:

- الله يجازيـكي يـا أُنـس، ضيَّعـتي العمـر وأنـا بـازرع أرضـك البـور، مـش كان زمـان عيـالي دلوقـتي رجالـة، أعتمـد عليهـم في الصيـادة، وأجوزهـم وأشـيل عيالهـم، آدي زمايـلي منهـم الـلي جـوز عيالـه، يـا تـرى ربنـا هيمـد ف عمـري وأربي الـلي في علـم الغيـب في بطـن عزيـزة؟

يتابـع مـن القـارب مجموعـة أطفـال يقذفـون النيـل بالحـصى ويـرددون:

- أمي جابت لي بلطي، والسردين ع البحر!

يراقبهم بعين حانية وقلب نابض:

- هييجي يوم وأشوف عيالي فوق روس بعض كده؟

***

أول من توافد من الرفاق؛ عطا السوَّاق، فهو أول من أدخل سيارات النقل رشيد، ينقل بها البضائع والسمك إلى البلدان المجاورة، ينافس الكارو من ناحية والنقل النهرى من ناحية، ويمتلكه إحساس بأن المستقبل له، لا يكف عن الهزار والضحك.

سلم عليه بحميمية، فقد جمعهما عمر طويل:

- إيه يا عم علي فينك؟ كل يوم والتاني أبص عليك!

- المِسراح، إنت عارف دي أيام السردين.

- إطلع من دول يا عريس.. هِيه الإدكاوية مريحاك؟!

- الحمد لله أكرمني ربنا آخر كرم.

كاد يزف إليه البشرى، تريَّث وكانت على طرف لسانه

- دول بيحسدوني ع العروسة، ربنا يسلم.

- طمِّني على أخبارك.

- هـو ينفـع كـده مـن غـير شـاي ولا بلـح ولا حاجـة؟.. إيـه هـو انـت اتعديـت مـن الإدكاويـة؟!

- لـو صـبرت يـا عـم عـلى رزقـك! إسـتنى البـاقي علشـان نـاكل سـمك مشـوي وعيـش مخبـوز الأول.

توافـد الأصحـاب واحـدًا تلـو الآخـر، فـكان ضحكهـم وضجيجهـم يشـق سـكون النيـل، بعـد أن غطـاه الليـل بردائـه، مرسـلاً إليـه طبقًـا مـن نـور يسـير في النهـر برفقـة قمـر السـماء.

تتـوالى أكـواب الشـاي في أيديهـم، يقـول أحدهـم اسـمه حسـن، صيـادٌ أبًـا عـن جـدٍ، لكنـه لـم يمتلـك غـزلاً أو مركبًـا، عـاش العمـر أجيـرًا، قـوت يـوم بيـوم، كثـير العيـال وفي انتظار أول أحفـاده.

يقول حسن:

- جـدف بينـا في النيـل شـوية، ولـلا أقـول لـك، تعـالى نـروح الـبر التـاني، نجيـب بطاطـا ونعمـل راكيـة ونشـويها.

- اطلب يا عم حسن.. جدف معايا.

رفـع رفيـق آخـر يدعـى الدمرجـي. صيـادٌ أجيـرٌ عـلى المراكـب الكبـيرة الـتي تخـترق المالـح. لـم يسـفر زواجـه إلا عـن ولـد، زوجـه منـذ سـنة وأنجـب فـيرد عـلى حسـن:

- لأ.. خلينـا جنـب القمـر يمكـن نشـوف عروسـة البحـر، بيقولـوا بتطلـع عـلى نـور القمـر.

- يـا راجـل انـت بتصـدق؟ طيـب ماحنـا طـولَ غمرنـا في البحر،

عمرنا ما شفنا الكلام ده!

- خلاص ياخويا انت وهو، يجعل كلامنا عليها خفيف.

- ناخدها من هنا لغاية أبو مندور، ومن هناك لغاية بحري المركز عند الورش.

- فاكر يا علي سجن الحضرة بعد ما حرقنا المركز سنة تسعتاشر؟

- ودي حاجة تتنسي؟ لسه فاكرها زي ما تكون امبارح، الأيام بتعدي بسرعة، أكتر من عشرين سنة فاتوا.

- إنت وقتها ما كانش عندك حاجة تخاف عليها، علشان كده كنت داخل بصدرك.

ينظر إليه شذرًا:

- كنت إيه وقتها؟ صياد.. ودلوقتي؟ وهمّا كانوا إيه؟! وصبحوا إيه؟! لم يتغير حالهم يسكنون مع أهاليهم، كل واحد محشور في أوضه بأسرته، ولساهم أُجَارية.. بيقولوا عني إيه؟ مال أُنس؟ وإيه يعني مالها من غير تعبي؟ وإيه يعني تعبي من غير مالها؟ كنت هطفح الدار دي وبالعافية هشبع البطون.. استجمع شتات أفكاره.

- ولو كان عندي! دا كان منظر يغيظ.. المظاهرة سلمية وعلى غفلة يضرب الظابط علينا نار! وصاب شباب زي الفل.. أنا ساعة ما شفت الدم حسيت انه دمي أنا أو دم أي واحد فينا.. مش كلنا كنا مع بعض؟

- في كل حتة الإنجليز هم اللي ضربوا النار.. مش عارف ليه الظابط يوميها هو اللي ضرب.. مش عارف خاف من إيه؟ وللا كان عنده أوامر.. واللي زاد وغطى! لما الظابط جه في حماية الإنجليز.. ساعتها قبضوا علينا واحد واحد.. ويا أخي المخبرين كانوا عارفين كل اللي حرقوا المركز، يمكن أكتر من خمسين نفر، ورحّلونا سجن الحضرة.

- أهم حاجة وعينا بعدم إتلاف أي حاجة في البلد.. ماحدش يخاف على بلدنا قدنا.. في السجن كانت أيام صعبة.. بس عرّفتنا على رجالة.. كنت سايب أم محمود على آخرها.. اتعسرت الولادة من يومها ما خلفتش.. كنت حاسس بيها.. الحمد لله نجاها هي والولد.

- ولد أبرك من عشرة.. أهو بكرة يملا عليك البيت عيال.. اقدر عليهم انت يا حلو!

- يا سيدي أبو القروش موجود والسردين من غير فلوس أهوه.. أم محمود تعمل حلة البصارة، وبعديها حلة العدس.

يضج المركب بضحك الرفاق، عندما اقتربوا من مرسى وردة، أشاروا عليه بمعاودة النزهة إلى أبو مندور فقط ثم العودة. لم يوافق علي فقد قطعوا شطرًا من الليل. فما كان منهم إلا الإذعان تحت نير ألسنتهم:

- أيوه يا عم.. ليلة مين؟.. الرشيدية وللا الإدكاوية؟

- سيبه يروَّح.. أحسن يتضرب.

- بيقولوا الإدكاوية جامدين.

لم يرد عليهم كما عودهم بمثل مزاحهم، ما جعلهم يشعرون أنه غضب، ثقلت خطواتهم، قد يناديهم.

عبر الشارع وعندما اقترب من الشارع الجانبي المؤدي إلى بيته أشار لهم، ردوا التحية بمثلها، ففي كل مرة تنتهي السهرة بالخلاف والغضب، وفي اللقاء الآخر ينسون أنهم سخروا، أو غضبوا، لكن قبول السخرية من علي لم يكن من قبل معهودًا.

يسأل علي نفسه.. أعليه أن يقسِّم الليالي بين الاثنتين؟

-٦-

يشق علي بقامته الطويلة سكون الشارع الغارق في سباته، يصل إلى شاطئ النهر عند مرسى وردة النيل، يطرقها بيديه القلقتين ثم يعود إلى البيت، تأوهات عزيزة تزداد، تهدأ قليلاً وتعود أشد، أُنس أعدت لها مشروبات ساخنة، تتناولها كوبًا بعد الآخر.

- إذا كان برد من غير شر هتهدي، وإن كان طلق ببركة ربنا هيحمى .

تردد عزيزة من خلال نهنهتها:

- هاتوا أمي.. أنا عايزة أمي دلوقتي.

تجذبه أُنس خارج غرفة عزيزة وتضع على كتفيه البالطو الصوف:

- جنب دار أختك نفيسة فيه داية، روح هاتها.

ينظر إليها في قلق واستنكار:

- دلوقتي في الساعة المتأخرة ديه؟

تمصمص بشفتيها

- يعني نقول للعيل استنى للصبح، الداية مستعدة لكده.

يطرق باب جاره في الشارع الضيق ويسأله عن داية

قريبة، يستغرب الجار وما زال أثر النوم في عينيه، يفركهما، تطوف ابتسامة بشفتيه، يعانقه:

- ودي حاجة تستخبى؟ اللي تحبل في الناموسية تولد والناس رايحة وجاية، والله فرحتلك.

- مش وقته، بسرعة تعالى معايا.

استل الجار تلفيعته الصوف المفرودة على نافذة الفراش الحديد، ابتلعهما ظلام الشارع الضيق وعندما خرجا إلى الشارع العمومي، ونَّستهما الفوانيس بضوئها الشاحب، تشتكي البرد والسهر وحيدة في انتظار عاملها، تثير في نفس علي أشواق الانتظار.

عرف الطريق إلى الدايات في منتصف الليل، من وقت لآخر يهز رأسه، إنه يقظ، لم ينم الليلة، إنه لا يحلم، الأحلام هي التي تتحقق، عندما يأتي عامل الفوانيس ليطفئها بعد الفجر، سيكون انتظاره وضع له حد.

طرق باب الداية التي قالت عنها أُنس، لم يجدها، خرجت في ولادة ولم تأتِ، طرق باب أخرى عند جامع الإدفيني دلَّه عليها الجار، أخبره جيرانها أنها خرجت في ولادة لإحدى العِزَبِ، ودلوه على داية عند محطة القطار في الأراضي، وجدها امرأة سمينة ترفع قدمًا عن قدم بالعافية، حمل عنها مخلاتها، تساوره نفسه أن يحملها إلى البيت، وصلت مرهقة لاهثة الأنفاس، انحشرت في باب الشارع ففتح لها الضلفة الأخرى، افترشت أول درجات السلم تلتقط أنفاسها وعلي يحثها على الطلوع وأخذ نفسها فوق، أخذ بيدها،

أنارت أُنس اللمبة المشعال وعلقتها في بئر السلم، وأخذت منه بيد الداية التي سبقها ظلها الكبير، أسرع إلى عزيزة، وجدها تبكي وتتألم، أخرجته أُنس.

أشعل سيجارة مبرومة، أخذ منها نفسًا مضطربًا، ألقاها على أرضية السطح وداسها، يلف السطح، أُذِّن للفجر، نادى عليه الجار:

- تعالى صلي الفجر وادعي لها.

بعد الفجر جاء عامل الفوانيس وأطفأها، استراحت من سهرها وتستعد لسهرة مقبلة وانتظار علي في ذروته، صرخة عزيزة تفزعه، ينادي عليه الجار الذي أرسل زوجته إلى عزيزة منذ جاءت الداية:

- إزَّيّ الحال عندك؟

- التساهيل على الله.

- تعالى أقف معايا في الهوا شوية، دي بكرية لازم تغيب.

قبل أن يرد عليه سمع صرخة أخرى لم تكن صرخة عزيزة، إنها لمن انتظره طويلاً. لا من ساعات، من عمر ولت سنواته، خرجت الداية إلى الصالة مشمرة الكُمِّين وبعض شعراتها منكوشة خارجة من تحت المدورة المعقودة على كعكتها، أشارت له بيدها البضة:

- تعالى هنا في الكِن شوف خلفك.

دخل وراءها إلى غرفة الوالدة، وجد أُنس تغير ملاءة

الفـراش والجـارة تسـاعد عزيـزة في الصعـود إليـه، يبـدو أن الدايـة ولدتهـا عـلى الأرض، عزيـزة مرهقـة الوجـه والفرحـة تطـل مـن عينيهـا، كاد عـلي يقبِّـل جبينهـا، تذكـر وجـود النسـوة فتماسـك، وضعـت الدايـة في يديـه لفـة، وجـه مـدور صغـير ويـدان مطبقتـان، قفطانـه القديـم صنـع منـه لفـة مـع حركـة بسـيطة، انفتحـت وظهـرت القدمـان الصغيرتـان بسـاقين كإصبعـين في كفـه، لـم يكـن يطيـق ملامسـة الرضـع مـن أبنـاء أخوتـه، جعلتـه اللهفـة يضـم اللفـة برفـق إلى صـدره، عينـاه تتمليـان في وجـه انتظـره طويـلاً ويَطِـل سـؤال ولـد؟.. بنـت؟

دخلـت الدايـة وهـي تجفـف وجههـا ومعصميهـا المشـمر عنهمـا الكُمَّـين، فردتهمـا وعدلـت مدورتهـا وهـي تسـأل عـلي الـذي أخـذ اللفـة في صـدره وجلـس عـلى الكنبـة العـربي تحـت الشـباك المشـيش:

- هتسميها إيه؟ اللي جاب لك يخليلك.

- بت.

- اللي تجيب البت تجيب الواد.

لـم يتوقـع أن يفاجئـه بطـن عزيـزة بأنـثى، لا يكـره البنـات لكـن لـم يكـن في الحسـبان، زاد الحريـم تحـت سـقف البيـت واحـدة، يقـول نصفـه الفـرِح «خيركـم مـن بكَّـر بالأنـثى»، فـيرد عليـه النصـف الآخـر المحـزون: بكَّـر إيـه يـا عـلي! هـو بعـد مـا شـاب ودوه الكتـاب؟ يتذكـر سـؤال الدايـة التـي ارتـدت جلبابهـا الأسـود وطرحتهـا الكالحـة فـيرد عليهـا:

- نوال.. نوال المنى.

- عاشت الأسامي، عقبال ما تآخيها.

غمز يدها بالحلاوة، دستها في صدرها فرحة، خرجت من غرفة عزيزة وهي تشير لأُنس، حسبتها أخت الوالدة، وعندما علمت أنها ضرتها، أشارت عليها بأخذ مشيمة المولودة وأن تخطى عليها وربنا بقدرته هيفك عقدتها، رفضت أنس محتجة بأن العمر فات.

أثار عرض الداية في نفس أُنس ذكريات الوصفات ومرارة الفشل في النهاية، من قال إنها لم تنجب اليوم، صرخة عزيزة لم تنبع من حلقها فقط بل من أحشاء أُنس، تلقت المولودة على يديها تصرخ وتُوَأْوِئ، ألبستها ما صنعته لها في انتظار تلك اللحظة، دثرتها بالأقمشة القطن الناعمة القماط والزبون والجلباب الأبيض المشغول، وربطت ساقيها من عند الركبتين إلى الكعبين بقماط آخر، البنت الشقية حركت قدميها كثيرًا وفكت الرباط، إحساسها جارف بأن تلقمها ثديها.

حطت أُنس عن حسنة سَبِيًّا ملآنًا بزيارة الوالدة من عسل وسكر وزفر، لاهثة الأنفاس تسأل أُنس:

- إزيّ عزيزة؟ قلبي أكلني عليها، حلمت ليلة أمبارح انها بتنادي عليّا، من ساعتها قمت من النوم حضرت نفسي وقعدت استنى الفجر، وجيت في أول أتوبيس.

لم تنتظر إجابة دخلت على عزيزة تجري عندما سمعت

وأوأة.

***

تفوح من البيت رائحة الحلبة الحصى المغلية في العسل الأسود، يتقلب علي بحرص بجوار الصغيرة التي ترفس الغطاء بقدميها الصغيرتين، توقظه مناغاتها، يتأملها، العينان العسليتان له والبياض لعزيزة، تعبت من كثرة تحريك يديها وقدميها، وضعت إبهامها في فمها الأدرد، يواصل نومه، يجف حلقها من المص في إصبعها، تتحول مناغاتها بكاءً.

أُنس ساهرة في غرفتها على نور اللمبة الجاز النمرة خمسة، تغزل شبكة صيد وترصعها بقطع الرصاص والفِل الأحمر، يتسلل إليها بكاء الصغيرة في البداية.

تقول:

- وهو ف دي الساعة.

يستمر البكاء وصوت علي ينادي عزيزة، تقوم مسرعة، تفتح الباب المواربة لغرفة عزيزة، تراها نوال تبتسم وتكف عن البكاء، تأخذها بلفتها وفرشتها الصغيرة.

يتحسس علي موضع الصغيرة، فلا يجدها، يسمع صوت مناغاتها خارج الغرفة يأتيه باهتًا، يأخذ رصا من غياراتها

الموضوعة على الكنبة، وقف على عتبة أُنس المضاءة وجدها تطعم نوال بمعلقة صغيرة مهلبية خفيفة وأمامها الغزل والمناقيش، تتجول عيناه في الغرفة، فمن يوم دخلته على عزيزة لم يجلس على فراش أُنس أو دخل حجرتها، كل الأشياء في مكانها الفراش والخزانة والبوفية وفوقه المرآة والشباك المشيش، زاد عليها الغزل وكرسي قصير تضع عليه اللمبة، وكانت لا ترفعها من مكانها إلا لتملأها بالجاز وتغسل زجاجتها، والغزل تغزله على السطح، مد يده إليها بالغيارات النظيفة، ابتسمت:

- نوال قلقتك؟

- بتشتغلي بالليل كده! عينيك.

- المعلم عايزها بسرعة.

- وإيه اللي جابرك؟ إنتي بتشتغلي تسلية.

- دا كان زمان، دلوقتي عندي عروسة عاوزة أشورها.

- من دلوقتي؟ إحنا فين والكلام دا فين، يا ترى مين يعيش.

يضرب كفًا بكف، يتابع نوال وصوتها العالي لتأخر أُنس عليها برضعة الكراوية، هم بمغادرة الغرفة، وصله صوتها مثقلاً بالألم:

- مش عايز تدخل ليه؟ هو انا مش مراتك؟

وقف ساهما ينظر إلى لا شيء، تنبه، ترك غرفتها كأنه لم

يسمعها، تابعت بصوت مشروخ:

- أكيد عاملة لك عمل.

عاد إلى فراشه وجد عزيزة متربعة في انتظاره محمرة الوجه، وعيناها الرصاصيتان معكرتين بغضب لم يره من قبل، شعرها متهدل على صدرها، طرقت بيدها فخذها:

- ما لسه بدري.. كنت خليك عندها شوية.

فاجأته غيرة عزيزة، لا يعرف، أيفرح؟ أم يدافع عن حق أُنس الضائع؟!

القميص الستان يتموج مع اهتزاز عزيزة وخبطها على فخذها، رمقها وهي على هذه الحالة، ضمها إليه بعنف، تتأوه متمتمة:

- أُنس الكل بيحبها، حتى أنا بحبها، والبت الصغيرة اللي لسه ما تعرفش عقلها، ماتسكتش وتلعب غير معاها، لكن أنا ماليش غيرك.

تتلاشى المسافة بينهما، تصل تأوهات عزيزة وضحكاتها إلى أُنس، وهي تهدهد نوال على صدرها، وتربت على ظهرها قانعة بحضنها.

***

أجلست أنس الصغيرة في قفص مصنوع من جريد السُّماني، ومن حولها وسادات صغيرة محشوة بالقطن وبعض الخرق من الجلابيب البالية، عزيزة ترضعها بعض الرضعات التي تناقصت مع حملها الثاني، أنس تطعم وتغسل اللفائف وتهدهد، تنام الصغيرة وتصحو على وجهها، ما يأتي من غزل الشبك تشتري به لنوال مرة حلقًا ومرة خمسية، تلف مصاغ الصغيرة في منديل مطرز من الحرف، على هيئة عصفور يحمل بمنقاره سنبلة، نطق لسان نوال وهي تحاول الوقوف مستندة إلى الأثاث والحوائط:

- أَمَّه أُنس.

أي هيام طاف بها وحملها بعيدًا، كأن الطفلة قطعت لها جزءًا كبيرًا من غاية المنى، انهالت على الفم الصغير المزين بقواطع لؤلؤية والوجه الجميل بالتقبيل:

- ماعدتش عايزة حاجة، أخدت من الدنيا أكتر من اللي بتتمناه، حتة منك يا علي بتقول لي يا امه أُنس، إنت ادتني كل حاجة.

في بكورة نهار ربيعي ونور الفجر يبدد الظلمة، سلك علي نفس الدرب وطرق باب نفس الداية، تلك المرة أركبها عربة كارو وفتح لها ضلفة الباب الثانية، وساعدها في النزول من العربة، عرفت طريقها إلى غرفة الوالدة، صراخ عزيزة يرعش ستار الضباب المستترة وراءه الشمس في دلال قبل سطوعها، مع تقدم ساعات الصباح، عندما ملأت الدنيا نورًا ودفئًا، شعر علي أنها تهنِّئه بمولوده الجديد

«خميس»، أطبق جفنيه وهو يضمه بحنان إلى صدره، ضمة الحبيب القادم من قلب السنين إلى محطة وصوله أخيرًا، على صدره المشتاق:

- يكون لي في الدنيا ذكرى.. ولد يشيل اسمي ويورِّثه لعياله.

ترد الداية وهي تلف طرحتها حول عنقها في زهو:

- مش قلتْ لك اللي تجيب البت تجيب الواد.

تستيقظ نوال من نومها في غرفة أُنس، تسمع وأوأة، تحاول التعلق في داير السرير العالي، تفشل محاولتها، تتعلق بمندر الكنبة المجاور ومنه إلى السرير، لتتعرف على من هو أصغر منها، يحتضنهما علي وتومض عيناه بالسعادة.

يتكرر طرقه على أبواب الدايات في منتصف الليل، عرفه الدرب، بيسر يجتاز الشوارع والأزقة المؤدية إليهن، ما عادت فوانيس الشوارع تذكره بالانتظار، رُزِقَ بولد جديد فهمس في أذن نوال:

- فتحتي الباب لاخواتك يا نوال.

***

أخذت عزيزة مكانها فوق كنبة الحنطور الجلد العريضة، سعيد على فخذها وخميس إلى جوارها وقد تعلقت أصابعه الصغيرة بالعليقة الجلد المدلَّاة فوق المقعد،

استعدادًا للرجرجة. أسبتة الزيارة تشغل المقعد الضيق المواجه والطرقة الفاصلة بين المقعدين، فَرَد الحوذي غطاء الحنطور وأخذ مكانه جاذبًا اللجام قليلاً إلى الوراء، تراجع الحصان في حذر إلى أن خرج من الشارع الضيق، طرقع الحوذي بكرباجه في الهواء، فتهادى الحصان يطرق بحدواته أرضية الشارع البازلت.

أزاحت عزيزة حرف الغطاء المشمع لتتعرف على شوارع المدينة، فمن عصر يوم عرسها لم ترها، سلك شارع الصاغة، في نهايته السَّنّان يثبّت قدمًا في الأرض والأخرى يحرّك بها ذراعًا تتدلى من منتصف الحجر الدوار، يلامس الطرف الحاد لأدوات قفاصة بالحجر، فيتطاير الشرر على جانبيه.

دلف بين جامع دمقسيس المعلق ومنزل البقرولي إلى شارع دهليز الملك، في إحدى بناياته مبيض النحاس، رفع جلبابه المتسخ إلى وسطه مظهرًا ساقيه الملطختين، وبهمة يواصل رقصه داخل طشت، من وقت لآخر يتحسس منديل رأسه المشبع عرقًا، يكيل السباب لصبيه المتكاسل طالبًا منه سرعة رص الأواني اللامعة على جنب، وتحضير ما عليه الدور في الجلي.

تمعن النظر إلى البيوت الأثرية على جانبي الطريق، تتمنى أن يهدئ العربجي من سرعة جواده، المشربيات دقيقة الصناعة والطلاء، يُهيأ لها أن بداخلها نسوة يتمتعن بمشاهدة المارة والشارع من دون أن يراهن أحد، ولا يخطر

ببالها أنها كانت لأغراض دفاعية، فمن ثقاب المشربيات تتصيد فوهات البنادق فرائسها من أعداء أصحاب البيوت، سواء تجار أغراب أو مماليك أو أتراك، وأهل البلد يتجنبون المرور بجوارها، والآن أبواب البيوت مفتوحة ويخزن بها الأهالي أقفاصًا وجريدًا، ولولا ما ينتشر بين الأهالي عن العفاريت التي تسكن الآثار ما كانوا تركوها، ومن يخزن أقفاصه في دخلة أبوابها الواسعة لا يدخلها من بعد العصر مهما كانت الدواعي، كأن أصحابها عيَّنوا أشباحًا لحراستها قبل رحيلهم، منزل علوان بيك - كوهية - محارم - بسيوني - رمضان.

ترفع رأسها متطلعة للمآذن لتأتي بآخرها، مسجد القبودان والصمادي والعرابي الذي يقف الحنطور بجواره، وجدت علي ينتظرها بجوار بابه المزخرف بنقر خشبه بنقوش إسلامية، وتذكرت باب البيت. فعندما نزلت لتأخذ نوال من على العتبة، رأت شجرة منقورة في خشبه من أسفله إلى أعلاه.

تحركت السيارة، عزيزة تتمنى أن تطوى المسافة سريعًا، من يقول هذا لا تزور أهلها إلا وعلى كتفها عيل؟ ومن لم تنجب لا تزور أهلها، أنجبت ثلاثة وتعرف أنها حامل، لم تقل بحملها فلن يوافق زوجها على زيارة أهلها إلا بعد الولادة، وهذا ما حدث في حملها في خميس وسعيد، آن الآوان لزيارة بلدتها، أي فرحة ترقص في قلبها؟ من قال إننا نعيش في البلدان؟ إن البلدان هي التي تعيش فينا، تركت نوال مع أُنس، يغضبها تعلق الأولاد بأُنس، وأحيانا تقول

«يخفوا عني».

رائحة زهرة البرتقال والليمون تداهم الأنوف، ذكرتها بشجرة الليمون في حوش بيتهم في إدكو، وزهرها الأبيض المصفر من القلب، كم وضعته في حلق قلتها يعطر ماءها، ارتجَّت السيارة وأصدرت أزيزًا في عبورها مزلقان البوصيلي، انتفض الولدان، ربتت على ظهر خميس بيد وضمت سعيد إلى صدرها بيد، فعادا إلى النوم، همس علي في أذنها:

- كان لازمتها إيه شحطة العيال؟ أمك بتيجي تزورك!

اليشمك يداري تعبيرات وجهها، تمتص تبرمه بابتسامتها المتألقة في عينيها، يتذكر يوم جاء لخطبتها، لم يتغير الطريق، نفس رجرجة السيارة، نفس الوكالات والمداخن وأكوام الملح الأبيض، والآخر الذي لم تنحسر عنه المياه محمر، يكاد يجزم بأن العصافير المرفرفة على شواشي البوص الأخضر، هي نفسها التي رآها منذ سنوات.

تزدحم محطة إدكو بالعربات الكارو المحملة بأنفار الغيط ومقاطف وأقفاص ومطالع النخل، كيزان الدُّكار مرصوصة في أكوام يحيط بها أصحابها والمشترون من الغياطين، وآخرون يعبئون ما اشتروه في الكارُّو، أصوات الحمارين الجعجاعة المبحوحة تلاحق الوافدين، تحثهم على استئجار حمار أو عربة كارو، بائعو الأسماك يرشون بضاعتهم بالمياه، وتزيد مناداتهم كلما مرَّ غريب.

تفرش أشعة الشمس الأزقة، رائحة الخبز تعبق الأجواء، من السياج البوص المضروبة حول البيوت، تتابع أعين

النسوة عزيزة وهي تجرجر في ملاءتها اللف والبرقع المزين بالقصبة الذهب، تحتضن سعيد على صدرها ورأسه الصغير ملفوف بمنديل كُحلي، تمشي خلف زوجها الذي وضع خميس على كتفه، تهامسن:

- عزيزة؟ والنبي ماعرفناها في الأول، دي صبحت رشيدية خالص.

استقبلتها رائحة زهر الليمون من قِبَل البيت، ورأت بعين قلبها البياض المفروش في حوشه كأن شجرة الليمون عروس غطت نفسها بالدانتيلا، تشابهت أزقة حي المجعرة واختلفت عن سابق عهدها بها، تراجعت أصوات الخمير، يبدو أن أصحابها بنوا لها زرائب في أماكن بعيدة.

وقفت أمام البيت، تغيرت واجهته، فتح أخوها دكان حلاق مكان غرفتها، استبدل بالنافذة بابًا بجوار باب البيت، كانت تنظر من نافذتها وهي تسند ذقنها على يدها المسنودة على حلق الشباك، كم تابعت منها القمر وانتظرت خروجه من خلف الغيم، وكم حكت لها صابحة من الحكايات وهي تجاورها على ذات الحلق، ضاع أثر الذكريات.

سبقتهم العربة الكارو المحملة بالزيارة، استقبلتهم أمها وصابحة بحفاوة، وجدت باب غرفتها مسدودًا بطوب وإسمنت، التقطت صابحة عينيها وهي تتوقف عند أثر غرفتها، غمزتها:

- تعالي غيَّري هدومك.

أدخلتها صابحة غرفتها:

- وحشـتيني قـوي يـا عزيـزة... حلفتـك بالنـبي ماتاخديـش عـلى خاطـرك مـن مصطفـى.. إنـتي عارفـة أوضتـك الوحيـدة الـلي ع الشـارع.

فرد الصيادون الغزل بين المركبين قبالة مسجد أبي مندور، في منتصف المسافة بين الشطين الغربي والشرقي، توارثوا عن الأجداد أماكن اختباء السمك ويطلقون عليها النقر، في الثلث الأخير من الليل يفردون شباكهم، عندما يشقشق الفجر، يخرج السمك من جحوره، يقع في الشباك، يلمونها وينفضونها في قلب المركب، يرصون طاولات كل نوع على حدة، بعد الطرحة الأولى وفرز أنواع السمك، أعادوا فرد الغزل.

أعدوا الفطور، عيش ناشف وجبن قريش داير في المش، ألقى علي لمن أشعل الوابور لعمل الشاي مِلء كفيه من البلطي الصغير يشويه قبل الشاي، يتقوقع على نفسه وهو ينتظر السمك المشوي، تداعبه نسمات النيل ويهدهده هز الموج الناعم للمركب، أغمض عينيه، رأى أُنس مقبلة، ابتسم وقام يستقبلها، مد يده إليها، وجهها مشرق، تجدُّ في السير تجاهه، تزيد الشقة بينهما كأنها تمشي إلى الخلف، تذوب ابتسامتها، عيناها فزعتان، تبتعد، يطويها الموج كأنها لم تكن، تطفو عيناها بفزعهما، يحاول النداء عليها فيحبس صوته.

يخرج من كابوسه على هز من يشوي السمك، يناوله القلة قائلاً:

- صلي ع النبي يا ريس.. خير اللهم اجعله خير.

يستعيذ بالله، يتلو ما حفظه من آيات الكتاب، يستعيد هدوءه كلما تذكر فزع عينيها ينقبض صدره ويكاد ينفصل عمن حوله، بريق الشمس على صفحة النهر وزرقة السماء، والطيور البيضاء التي تحط على حواف المركبين، ولا يلتفت إليها الصيادون إلا وقد طارت بصيدها من الأسماك المتقافزة، التفت إلى طائر أبيض يبتعد، وبين طرفي منقاره سمكة مقوسة، تابعه إلى أن غاب عن عينيه.

تأمل مسجد أبي مندور ومئذنته العالية، يتذكر صعود أُنس لها ويكاد يلمحها تمرق بين طبقاتها المتهالكة، وصفت لها أمه طلوع المئذنة لينفك عنها النحس وتنجب، تحت الجميزة وضعت قوالب الطوب وفوقها صاجة، أشعلت تحتها شعالة وقفصًا متهالكًا، شوت البلطي ووضعت براد الشاي على الجمرات، رائحة الشاي وتصاعد الدخان من تحت الجميزة، توقفت الذكرى أمام عينيه، تغير مكان المركب في اتجاه المدينة، أعاد الصيادون فرد الشباك، امتدت عيناه إلى الشاطئ، بوص وسمر وأشجار ضخمة، على امتداد البصر تل الرمل، يتذكر شجرة التين الشوكي المتشبثة بالرمل، عندما مر عليها مع أنس وهما في العودة من أبي مندور نظرت إليه بإعجاب:

- شوف حكمة ربنا.. أهي واقفة لوحدها في الخلا.. بس ما حدش يقدر يذلها.

ينتبه من ذكرياته على حديث الرجال عن الوهلة فيزيد

انقباض صدره، لم تكن المرة الأولى للوباء، فما زال يذكر معسكرات العزل من سنوات قليلة، وقتها أغلق باب الدار لا أحد يخرج أو يدخل وقوتهم عيش ناشف ليس إلا.

وصل البر، عبَّأ الطاولات بالسمك، لكل صياد كوم ولكل مركب كومه، حمل الصيادون الطاولات إلى السوق، أخذت دورها في المبيع، استلم نقوده، قسَّمها مثلما قسَّم أكوام السمك.

أسعد لحظاته عندما يضع كومه وكوم المركب في جيب الصديري الداخلي، ويخلط كومه من السمك على كوم المركب في مشنة واحدة.

لم يلمح مسَّاح المراكب، شمر عن ساعديه، جرف بالجردل الصاج من ماء النهر وسكبه على سطح المركب وداخله، مسحه بجلباب بالي، غطَّس الغزل في النهر ونشره على حبل مربوط بين شجرتين، انفكت عمامته فوضع شالاً على كتفه، وأطبق كفه على ثنيات مشنة السمك التي ما زالت تلفظ مياه السمك من قاعها المثقوب، وهو يبعدها عن سروالـه، في طريقه إلى البيت، على العكس من الصباحات الماضية يشعر بثقل خطواته، كأنه يوشك أن يقع في بئر.

***

وضع المشنة على عتبة البيت، فتش عن المفتاح في جيب الصديري، طرق الباب بالكف المعدن المعلقة في ضلفة الباب اليسرى، وجده مفتوحًا، وباب الوسط مواربًا، البيت هادئ والصغار لم يستيقظوا، أُنس ليست في انتظاره كما عودته، لم تستقبله من السلم وتأخذ منه المشنة، باب غرفتها مفتوح وفراشها خال حتى من نوال، دخل غرفة عزيزة، نوال وخميس ينامان على الكنبة وسعيد بجوار بطن أمه الممتلئ، شعر بخطوات على السلم، وقف بباب الوسط، أطلت أُنس بطرحة الصلاة البيضاء وجلبابها البيكة المشجر بورود صغيرة زرقاء وبيضاء، وجهها مصفر وعيناها معكرتان بألم تبتلع الآهات فتنطق بها عيناها، أمسك يدها وأدخلها حجرتها

- كنتي فين؟ مالك؟

تخرج الكلمات من تحت ضروسها:

- كنت بجيب عود نعناع من عند أم محمد جارتنا.

أجلسها على حافة الفراش، عيناها المعكرتان شبيهتان بعينيها الفزعتين في حلمه، ربت على يدها:

- استريحي وعزيزة تغلي لك النعناع.

دخل غرفة عزيزة يوقظها.

الغثيان يكاد يخنق أُنس، انتفضت من فراشها واقفة، ارتدت على عجل جلبابها الأسود فوق جلباب البيت والطرحة السوداء استبدلتها بالبيضاء، وانتعلت قبقابًا

وجدتـه أمامهـا.

سـمع صـوت إغـلاق بـاب الوسـط، جـرى عـلى غرفـة أُنـس، وجـد البـاب مفتوحًـا وفراشـها خاليًـا، سـمع تكـة القفـل، خبـط البـاب بيديـه:

- فيه إيه يا بت؟ بتقفلي الباب بالقفل ليه؟!

فتـح الشراعـة، رأى عينيهـا الفزعتـين، تركـز نبضـه في طبلـتي أذنيـه، كلماتهـا ممزقـة الحـروف مـن الغثيـان والألـم:

- سـامحني.. أنـا حاسـة انهـا الوهلـة.. خـد العيـال وروح عنـد أم عزيـزة ف إدكـو.

يسـمع طرقعـة قبقابهـا عـلى السـلم ويراهـا تجـري عليـه كأنها تطـير، ليتـه يوقفهـا أو يلحـق بهـا، يقـف مصفـد اليديـن، يفزعه صـوت إغـلاق بـاب الـدار وراءهـا، تابعهـا مـن النافـذة، رآهـا تجـري وتقـع، تتألـم، تتقيـأ ثـم تقـف وتعـاود الجـري، نظـر حولـه، هـو الآن وراء النافـذة وهـي تجـرى إلى معسـكر العـزل، تبـادلا الأماكـن، في صبـاح الأمـس كانـت هـي وراء الشـيش المـوارب تنتظـر عودتـه مـن المِسراح وهـو مـاذا ينتظـر؟!

في تلـك اللحظـة أُنـس تـدرك أنهـا تسـير تجـاه القـبر لا محالة، مسـحت يدهـا الـتي مسـكها وربـت عليهـا مـن القـيء وقبلتهـا، وضمتهـا إلى صدرهـا وأغمضـت عينيهـا، ينغـص عليهـا الألـم لحظتهـا.

أدركـت أنهـا تنهـي الشـارع فوقفـت واسـتدارت ورفعـت يدهـا تلـوح لشـارعها قبـل الرحيـل، فهـي تعـرف أنـه لـن يمتـد تحـت

قدميها ثانيةً.

يزيد من آلامها خوفها من احتمال إصابة من في البيت، عندما أدركها المسعفون، مدت لهم يدها بالمفتاح المربوط بحبل غزل، وقالت من خلال لهاثها واعتصار الألم لأحشائها واختناقها بالغثيان:

- سيبوني عرفت مصيري.. شوفوا أهل بيتي الأول.

أخذوا المفتاح والبيانات، طمأنوها بأنهم سيفعلون اللازم، جاءت سيارة نقل صندوقها الخشب مفتوح من الخلف، أنزلوا منها المصابين، عصرهم الوباء، لا يستطيعون وقوفًا أو جلوسًا، أفرغت السيارة حمولتها وعادت تلف في البلد لتأتي بغيرهم.

خلعت عنها ممرضة عذبة الابتسامة جلبابها الملوث بالقيء وألبستها آخر مريحًا، استلقت فوق فراش منبسط على الأرض تتلقى الحقن المطهرة والموقفة للقيء، تمنت أن ترى نوال مثل الممرضة في شبابها وعذوبتها، تذكرت أنها قد لا تراها أبدًا، دعت لها بالمستقبل المشرق.

تراءى لها يوم عرسها وعلي يرقص وسط أصحابه الصيادين، وأكواب الشربات تدور وهي مع جاراتها وصاحباتها في المشربية، تراقبهم وهم يتحلقون حول العريس ويلفون حول خصره شبكة صيد يمسكون طرفيها، تزيد سرعتهم حوله، الدوار يشعرها أن الأرض تتحرك ومن عليها يتطوحون، ريقها الناشف يعيدها إلى أكواب الشربات في عرسها.

مـن بـين أربطـة الخيمـة لمحـت النيـل، تغمـض عينيهـا عشـقًا واحتضانًـا، أشـعة الشـمس الـتي فشـلت في تخلـل مياهـه انعكسـت فـوق سـطحه فبـدا نهـرًا مـن فضـة، ليتهـا تخلـع أرديـة الدنيـا وتـنزل إليـه، يحملهـا موجـه الهـادئ مغمضـة العينـين راضيـة بأنـه مسـتقرها.

تحـاول الـكلام، جفـاف ريقهـا لا يسـاعدها، وصـل سـؤالها إلى الممرضـة ذات النظـرة الحانيـة فأجابتهـا:

- لا تخـافي أهـل البيـت بخـير.. المسـعفون طهـروا البيـت وأعطوهـم التحصينـات اللازمـة.

أسـبلت عينيهـا شـكرًا لله، غفلـت، فـرأت الكوريـك يجـرف الـتراب ويطوحـه جانبًـا، تتناثـر الأتربـة في الهـواء، يسـتمر الحفـر، فتحـت عينيهـا، حاولـت رفـع يدهـا لتلمـس بهـا اليـد الأخـرى الـتي لمسـها عـلي، ثقلـت يدهـا كأنهـا ترفـع جبـلاً، انبسـطت أسـاريرها، كسـت وجههـا ابتسـامة رضـا، أكسـبت ملامحهـا وداعتهـا الأولى.

***

فـوق جزيـرة مـن الجـزر المتفرقـة المنحسـرة عنهـا الميـاه في بحـيرة إدكـو، أقـام مهـنى عـم عزيـزة، عشـة مـن البـوص المبطـن بالـبُرد، وكلاهمـا تنبتـه البحـيرة بسـخاء.

قريبًـا منهـا في البـوص الأخـضر في الميـاه الضحلـة، ينصـب

الجـوابي المعـدة مـن السـلك والمثقوبـة مـن القـاع، بحيـث يدخلهـا القرمـوط أو ثعبـان البحـر ولا يسـتطيع الخـروج، يطـرح الشـبك جانبًـا البحـيرة بفلوكـة يحركهـا بالمـدرة، فميـاه البحـيرة ضحلـة وأعمـق مـكان فيهـا يصـل مـاؤه إلى صـدر الرجـل.

غـرز أمـام العشـة فرعـي شـجر جافـين وأحاطهمـا بقطـع الحجـر، أوصلهمـا بحبـل، ينـشر عليـه الغـزل وملابسـه المبتلة، فـرش أرضيـة العشـة الرطبـة بجـوال مـن الخيـش فوقـه فَرشـة مـن العبَـك المزيَّـت محشـوة بالقـش، في مواجهة شـباك لا يزيد عـن كونـه قطعـة مهترئـة مـن زكيبـة مـن الخيـش الخفيـف، ينزل بهـا في أواخـر موسـم القطـن، يجمـع مـن فلاحـات قـرى رشـيد القطـن الـذي خلصنـه مـن الحطـب، مقابـل بيعـة سـمك.

بعـد الغـداء يفـرد مهـنى ظهـره عـلى الفرشـة القـش، ويغطـي غطيطـه عـلى نقيـق الضفـادع وصفـير صراصـير الغيـط، يفتـح عينيـه مراقبًـا بقـع الشـمس المتراقصـة عـلى أرضيـة العشـة والنافـذة مـن ثقـوب سـتارته الخيـش، يحـدد الوقت بقـرب أذان العـصر، يتململ متثائبًـا، يشـعل القوالـح في الراكيـة ويغـير مـاء الجـوزة، يغمـز كـسرات الخـبز الناشـف في الشـاي ماصًّـا قطراتـه قبـل أن يصـل الخـبز إلى فـاه، ويـأتي عـلى كـرسي الدخـان، يفـرغ الجـوابي الممتلئـة بالقراميـط في مشـنة عميقـة مـن الخـوص، ويمـضي إلى السـوق ومنـه إلى بيتـه بعشـاء أسرتـه مما اصطـاده، تـاركًا الفـئران تتقافـز في المقطـف المعلـق عـلى جـدار العشـة البـوص بحبـل مـن الليـف المفتـول، ملتهمـة فتـات الخـبز.

عندمـا وصـل عـلي إدكـو هاربًـا مـن الوبـاء، أوصـل عزيـزة

والأولاد إلى بيت حماته، ولاذ بمهنى في عشة البحيرة، يصاحبه مهنى بالنهار تاركًا له العشة ليلاً.

تناول مع مهنى بعض كسرات الخبز بالجبن القريش، يدخل اللقمة تحت ضروسه، كأنه نسي كيفية المضغ أو البلع، عندما حل الظلام فرد البوص الملفوف كباب للعشة وأحكمه بالدوبارة، مدد فوق الفرشة واضعًا راحتيه تحت رأسه، يتابع صوت أرجحة قفطانه المنشور.

شعر بأصابع تمرر في شعره، انتفض جالسًا:

- مين؟... أُنس؟

شعرها مفرود فوق كتفيها البيضاوين، ابتسامتها ساطعة، أفسح لها مكانًا بجواره:

- تعالي.. اقعدي جنبي، كنت عارف اني مش هاهون عليكي تسبيني .

تضع رأسها في راحة ونعومة فوق صدره، كمن وجد مرفأه أخيرًا، يطوقها بذراعيه، ينتبه على صأصأة فأر أطبق عليه ذراعه في جيب الصديري، يتابعه وهو يتقافز بنظرة خائبة لاهث الأنفاس.

رفع الغطاء الخشب عن القلة، يقرقر الماء في حلقه ويتساقط على صدره، نقيق الضفادع يزداد شراسة، صراصير الغيط تتسابق في صفيرها، نباح كلب يزداد ثم يخفت، يفك الدوبارة ويأخذ الراكية إلى الخارج، النور الرمادي للسحر يشعل في نفسه ذكرى موعد المسراح، كان يرى تلك اللحظة

بعد فرده الغزل، تحفر الخنافس في التراب، تقفز الضفادع قرب البوص الأخضر، ينظر إلى القوالح المتوهجة في الراكية، يتذكر أنه يرغب في كرسي معسل، يهز رأسه بعدم اهتمام.

تتراجع الأصوات المحيطة به والتي تزعجه، يخترق سمعه صوت إغلاق باب الدار وراء أُنس، يزداد الصوت بشاعةً، كان صفعًا ارتجت له جدران البيت، يضغط بيديه فوق أذنيه، يعتلي مقدمة الفلوكة، يُصدِّر المدرة في أرضية البحيرة، تندفع الفلوكة أمتارًا، يدفع ويدفع، تصطدم في البوص، يختل توازنه، يقع في المياه محدثًا صوتًا، ترفرف الطيور فزعة مبتعدة، يزعق كأنه يحدث الطيور المبتعدة:

- أُنس ماتت.. أُنس ماتت، وأنا هنا هربان م الموت.

وحده بين الماء والسماء وصور أُنس المتتالية فوق سطح البحيرة العاكس، ينحرف مسار الدموع حول شاربه ويتخلله الدمع إلى شفتيه مالحًا، يجرف المياه براحتيه ويطس بها وجهه، وتتلاحق الصور.

ليلة عرسها والفرحة تنبض في عينيها الخجولتين، ليلة عرسه مع عزيزة وتردده في الدخول إليها والألم يقطر من عينيها، وهي تتوارى عنه كي لا تعطله عن عروسه الجديدة، صورتها تهدهد نوال غير معاتبة على إهماله لها، صورة عينيها الفزعتين آخر ما رآه منها، يهز بيديه الماء، تضيع الصور واحدة وراء الأخرى وتبقى صورتها تتوسط أختيه وهن صغيرات، بجلبابها الكستور وضفيرتيها الملتويتين فوق أذنيها، والتفاتها إليه وهو يقدِّم لهن الحلوى، تكبر

صورتها بوسع البحيرة، تغطي البوص والمدرة والفلوكة، يضرب الماء بيديه، تهتز الصورة وسرعان ما تصفو.

***

يضرب مصطفى ابنه على هروبه المتكرر من المدرسة، يحتمي الولد في عمته، تهدئ عزيزة أخاها وتوبخ الولد:

- عيب عليك يبقى عمك اللي انت على اسمه أستاذ في الكلية، وانت بتهرب م المدرسة!

يرد عليها الولد وهو يمسح دموعه، ويستعدل هندامه بعد العلقة:

- عمي الصافي أهو أغنى واحد في العيلة معاه الابتدائية بالعافية.

- طيب خد الابتدائية وبعد كده يبقى لنا كلام تاني.

تربت عمته على كتفه مبتسمة في وجهه، يبادلها الابتسامة كأنه يعدها بانتظامه في المدرسة، يلعب الأولاد في حوش البيت، ونوال تساعد جدتها في ترتيب غرفة خاليها، تنادي صابحة من المطبخ على عزيزة، لتساعدها في إعداد البط وحشوه بتخديلة البصل، يهز البخار المتصاعد من الأواني أغطيتها المواربة، وتنساب حبات من الشربة على الحواف محدثة طشطشةً، تلتقط عزيزة الطينة وحبات الأرز الميتة

والكسر من الأرز قبل طهيه، تتعجلها صابحة لأنها وضعت حلة بعِقد الأرز على النار.

- مالك يا عزيزة؟ فكيها بقى! الحي أبقى من الميت.. وبعدين أهو الجو خلي لك.

تغسل عزيزة الأرز، ويلف شريط حياتها مع أُنس أمام عينيها، هي الآن من دون ضُرة، حزن ثقيل يجثُم فوق صدرها، آخر ما رأته من أُنس، بعد خروج علي للمسراح، حملت نوال وهي نائمة وأرقدتها بجوار خميس، فردت عليها الغطاء، ومسحت على رأس خميس وأخذت سعيد وهو نائم ليفك حبسة البول، وأعادته إلى جوار عزيزة وسألتها:

- عاوزة حاجة يا عزيزة؟

هزت رأسها متظاهرة بالنوم وهي تسأل نفسها:

- هي جابت نوال ليه؟ دي عمرها ما فارقتها!

قامت، وسارت على أطراف أصابعها، ألقت نظرة على غرفة أُنس وجدتها مكومة في فراشها، عادت إلى غرفتها وأسفت نفسها على ظنها بأن علي تسلل إليها وأوهمها بالمسراح، على الرغم من عدم معاشرته لأُنس بعد دخلته بعزيزة، فإنها على يقين بعمق ترابطهما وتخشى أن يتحول زوجها إلى أُنس ويتركها كما يترك أُنس الآن.

شعرت بها تسير من غرفتها إلى الحمام أكثر من مرة، سمعتها تتقيأ وحسبت نفسها تحلم، فتحت عينيها وعلي

ينادى عليها، سمعتهما يتكلمان، قامت واقفة على صوت إغلاق باب الدار وجدت علي وراء شباك أُنس المشيش، حاولت أن تستفسر منه كانت عيناه زائغتين كمن تاه من أمه.

تخرجها صابحة من أفكارها:

- بسرعة حمري البط.. إخواتك وصلوا.

تصدرت حسنة الطبلية المستديرة متربعة فوق شلتتها، فكَّت الخيط من بين وركي البط، وأفرغت التخديلة فوق الأرز، وقسمت البط على الكبار والصغار، زاغدة عزيزة:

- حطي لقمة ف حنكك، الحزن ما لوش دعوة بالأكل، واللي ف بطنك ذنبه إيه؟!

التفوا حول حسنة، شحاتة والصافي ومصطفى وعزيزة وصابحة، تردد حسنة النظر إلى ولديها شحاتة والصافي قائلة:

- إيه مش ناويين تريحوا قلبي وتتجوزوا.

وضع شحاتة كوب الشاي في الصينية:

- أجرت شقة قريبة من الكلية، و...

تلعثم واحمر وجهه، تغمز صابحة عزيزة:

- شوفي مكسوف إزَّاي قدام أمه؟! على الله يتكسف م العروسة.

توشوشها عزيزة:

- اكتمي يا بت خلينا نسمع.

ترد أمه قاطعة إحراجه:

- تعرفها.

- أيوه.. دي كانت طالبة عندي وهي دلوقتي مدرسة.

- ما دام انت مرتاح لها خلاص.. شوف جو عيلتها وتعالى خدني أشوفها.

يشرق وجهه، يقبل رأس أمه ويدها.

تمصص صابحة وهي تميل على أذن عزيزة:

- شوفي اللي بيتكسف! غرقان لشوشته! ياما تحت السواهي!

تلاحظها حماتها:

- صابحة.. ماعندكيش حاجة حلوة تقدميها لاخواتك؟

تعود بسرعة من المطبخ بصينية عليها لقمة القاضي (زلابية)، وبراد الشاي، تضحك حسنة وتتجه إلى الصافي:

- سمعت انك أخدت شقة في إسكندرية.

- يا ست الكل دي لزوم الشغل.. إنتي عارفة عايز أفتح مكتب تأجير سيارات.

- عندي ليك عروسة.

- ماشي يا امه اللي تقولي عليه نافذ.

- الشقة تتجوز فيها وخلي المكتب بعدين.

اتجهت عيناها إلى مصطفى في حزم:

- معاك فلوس تخلص اخواتك في البيت؟

ارتبك، تنظر إليه صابحة بتوجس، تترقب ما ينطق به:

- معايا اللي تقولي عليه.

سطعت لهجة حسنة الآمرة:

- على رأي المثل خد من التل يختل، المركب اللي كان لنا النص فيه خلاص بح، في الأيام الأخيرة كان اللي بيتصرف عليه أكتر من اللي بيجيبه، في الآخر اتباع وغطى ديونه، وهو مصطفى فتح الدكان عياقة؟ ع العموم المركب أدى رسالته والحمد لله، وبالنسبة للبيت الماشي دلوقتي الواد عشرين والبت عشرة.

دخل مصطفى غرفته تابعته صابحة، مال شحاتة إلى عزيزة:

- ماتعرفيش حاجة عن منعم.

- علي قال انه بيتدرب ع السلاح مع الإخوان وناوي يروح غزة، وأكد علينا ماحدش يجيب سيرة لأمه.

يتابع شحاتة كلامها باهتمام:

- وعلي رأيه إيه؟

- ساعات يقول دا مجاهد بيحارب اليهود، وساعات يقول مراته وعياله ذنبهم إيه، شحاته.. خليك في عروستك وبلاش توجع قلوبنا عليك.

- ماتخافيش مش هحارب اليهود في فلسطين.. هاحارب الإنجليز في القناة.

تضرب صدرها:

- يا لهوي.. لسه الكلام دا في دماغك؟!

يضحك ويضمها:

- بهزر معاكي.. إنتي ما تعرفيش الهزار؟

يعود مصطفى وصابحة خلفه، يضع أوراقًا مالية في حجر أمه:

- دا كل اللي معايا دلوقتي والباقي شوية كدة لما أبيع العجول.

تقسم حسنة أوراق البنكنوت على أولادها، أعطت شحاتة قال:

- خليهم معاكي لوقت المهر والجهاز.

والصافي قال مثل أخيه، ومدت يدها لعزيزة بحقها، احتقن وجهها وقالت:

- خليهم دخلتي ع الدار.

لا تعرف من أين جاءت بجملتها التي لقيت استحسان مصطفى وأمها وصابحة، فقد بشت وجوههم، قبلتها صابحة هامسة:

- أصيلة يا عزيزة.

دخل الصافي وشحاتة غرفتهما التي خرجت فرشتاها في الشمس ورتبت وبخرت، ألقى شحاتة بنفسه فوق السرير متأوهًا:

- ياه ع الراحة اللي بحسها على سريري.

تأمله الصافي:

- في إيه هنا؟ أبقى ناوي على كلام وساعة أمي ما تبص لي وصوتها يرن ف وداني ماقدرش أقول غير ماشي.. اللي عايزاه نافذ، والغريبة اني ساعتها بجد بفكر في تنفيذ اللي هيّ عايزاه.

يجلس شحاتة على حافة السرير ويتابع أخاه بنظرة مستفهمة:

- ناوي على إيه يا ابن حسنة؟

- عاوز اشتري أو أشارك على نقل تانية وتالتة، بعد الحرب الأمور ماشية.

يرمقه شحاتة بمكر:

- يا راجل.. يعني الحرب عطلتك؟!

يضحك وهو يميل عليه كأنه سيقول سرًا:

- الحرب يا قاتل يا مقتول يا مشرد، والأهم مستفيد.

يرفع شحاتة حاجبيه:

- ترضى حد يقول عنك غني حرب؟

- دا لـو أنـا أشـعلت الحـرب.. عايـز أقـول لـك حاجـة.. رووس الأمـوال وتنميتهـا هـي أسـاس النهضـة، العالـم بيجـري نحونـا وإن وقفنـا داسـتنا رجليهـم، مـش علشـان هـم قُسـاة، علشـان مـش هيشـوفونا.

-٨-

سحبت عزيزة ثديها من فم رضيعها الجديد مصطفى، عندما سمعت طرقًا على باب الدار وسرسعة بنات الجيران ينادين نوال، سبقتها نوال وفتحت لهن، تقدمن على الدرج تعتلي رؤوسهن مقاطف مستندة إلى خرقة مبططة فوق العصابات الباهتة، مملوءة بالحطب من بواقي القفاصة، أشارت عزيزة لهن إلى أماكن إفراغها، وفرز ما يصلح للكانون وما يصلح لفرن الخبيز.

رفعت الغطاء عن ماجور العجين الخمران، أخذته بين ساقيها، فردت رَدة في اللوح الخشب، قرَّصت العجين، أشعلت الفرن، نوال تناولها المطرحة والدقيق وتأخذ منها العيش الناشف وتفرده في السحَّارة.

يطرق السقا باب الدار، يسبقها صوته:

- ميه.. ميه

تابعه خميس وهو يفرغ قربته في الأزيار على بسطتي السلم، وعندما انتهى ناوله قرشًا، قبله ووضعه في جيب سرواله قائلاً:

- سلم على أبوك.

نفيسة أخت علي تنادي من باب الدار:

- يا نوال.. يا وله يا خميس.

يجـرى الثلاثـة نـوال وخميـس وسـعيد، يحيطـون بعمتهـم ويسـبقونها عـلى الـدرج، تدخـل إلى عزيـزة أمـام الفـرن وهـي تسـمي الله، تخلـع جلبابهـا الأسـود والطرحـة واليشـمك، تقـف نـوال فـوق كـرسي وتعلقهـا عـلى المشـجب في غرفـة أمهـا، تفـرد نفيسـة العجـين عـلى مطرحـة أخـرى وتنـاول عزيـزة، تطلـب منهـا عزيـزة الجلـوس أمـام الشـاروقة وهـي سـتعد صينيـة عجـة.

خدلـت البصـل مـع الطماطـم والبقدونـس، ولفتـه بالبيـض والدقيـق، طهـت صـواني العجـة عـلى صهـد الفـرن، فاحـت رائحتهـا.

قطـع خميـس وسـعيد لعبهمـا أمـام البيـت مـع رفاقهـم، مسـتقبلين عـلي يتسـابقان عـلى مسـك المِشـنة مـن يـده، يعطيهمـا المِشـنة بسـمكها، يهمـس لـه سـعيد:

- عمتي أم منعم فوق.

يفتـح عـلي البـاب الخشـب ذا الثـلاث ضلفـات لدكانـه، الـذي يضـع فيـه بعـض الشـبك ومجاديـف متآكلـة، وضـع دلـوه عـلى جنـب ورتـب أشـياءه، أغلقـه ولحـق بولديـه.

حملـت نـوال الرضيـع بـين ذراعيهـا إلى أمهـا أمـام الفـرن، يسـبقه صراخـه، تهدهـده عزيـزة عـلى صدرهـا، يهـدأ إلا مـن شـنهفات متباعـدة.

تجمعـوا حـول الطبليـة، خُـرَط العجـة بالعيـش الطـري

واللِّفت المخلل، ألقت نفيسة نظرة عزاء إلى غرفة أُنس المغلقة:

- ألف رحمة ونور عليكي يا أُنس يا عشرة العمر.

ترمق عزيزة والعيال حولها وتكمل:

- ربنا يعمر بولادكم.

يهز علي رأسه في أسى:

- منعم عامل إيه دلوقتي؟

- الحمد لله بخير، إحنا كنا فين، كان بيقوم من النوم يصرخ ويقول: صوت المدافع والرصاص في وداني.

يتابع الأولاد الحديث، يقول خميس:

- عايز أحارب زي عمي منعم يابا، أمسك البندقية تخ.. تخ

يضحك علي:

- لما رحت أزوره قال انه راح الخليل.

- أيوه الجيش الأردني استولى على القدس القديمة وبعدين اتقدمت قوة مصرية فيها شوية متطوعين من مصر وليبيا ودخلوا الخليل ووصلوا لغاية بيت لحم.

- إيه دا كله الله يفتح عليكي، اتعلمي يا عزيزة.. افتحي الراديو ع الأخبار مش بس تسمعي الأغاني.

تابعت نفيسة كلامها وهي تسند ظهرها على الحائط:

- يا حبة عيني اتصاب في الهُدنة الأولى يوم إعلانها، اليهود هاجموا العسلوج وكان مع القوات القليلة اللي كانت فيها.

يربت أخوها على كتفها:

- احمدي ربنا انه وصل لك بخير، ربنا عالم بحالك.

تمسح دموعها بطرف طرحتها.

أخذ علي الرضيع في صدره ونام على فراش أُنس بعيدًا عن ضجيج الأطفال، أخرجت عزيزة صندوقًا من دولاب أنس به خيوط وإبر، وضعته أمام نفيسة وبجواره كوم من الملابس المغسولة لترتقها، فعزيزة لا صبر لها على الخياطة ولضم الخيط في الإبرة، تمتمت نفيسة:

- يعني أُنس ماعلمتكيش شُغل الإبرة؟!

- العيال هدُّوا حيلي ف خدمتهم.. أُنس كانت شايلاني.

لضمت نفيسة الإبرة، وعزيزة تفرز السمك وتعد البصل لعمل صيادية حمراء:

- منعم بيحب الصيادية بالقراميط وللا البلطي؟

- مافيش داعي تتعبي نفسك.. إنتي امبارح بعتّي له صنية سُبِّيط .

- والنبي أبدًا دا زي شحاتة أخويا ربنا يهدي سره ويبعده عن السياسة.

ترفع نفيسة يديها:

- آمين يا رب هو ومنعم ويتهدوا لعيالهم، عقبال ما تشوفي خميس وسعيد.

- تسلمي، خميس هيدخل السنة دي المدرسة الأولية ونوال في سنة تانية.

***

طرق شحاتة باب الدار المواريب، التفَّ حوله خميس وسعيد ومصطفى، كأنهم سيحملونه إلى أمهم النائمة جوار المولودة الجديدة، التي أسماها أُنس وكتبها كاتب الصحة أنيسة، سبقهم مصطفى يُخبر أمه وجدته بقدوم خاله، قامت عزيزة تسوي الكنب وتعلق الملابس المبعثرة فوق الأسرة والمساند، تحث نوال على مساعدة جدتها في إعداد الغداء.

استقبلته نوال من على السلم وأدخلته إلى أمها، وجرت تنادي جدتها من أمام الفرن، أوصتها حسنة بمتابعة صواني البطاطس في الفرن، وحلة الأرز فوق الكانون.

- وحشتني قوي، ماجبتش مراتك وابنك ليه؟!

يقبل يد أمه ويجلسها بجواره على الكنبة، تأخذ شلتة وتجلس أمامه على الكليم:

- كنت في افتتاح قناطر إدفينا عند قصر الملك مع

مصطفى النحاس باشا.

- اسم الله عليك يا خويا ربنا يعلي مراتبك.

يلم ساقيه فوق الكنبة مستسلمًا لهواء النيل، تهز أمه ركبته وهي تتسند لتقوم من جلستها:

- قوم اتشطف والبس قفطان من عند علي واقعد براحتك.

خرج من الحمام والفوطة حول رقبته:

- الريس فين؟

- سارح باللوتسي في المالح.

- ييجي بالسلامة.. وأخبار منعم إيه؟ هو في البيت دلوقتي؟

- منعم بخير ربنا تم شفاه واشتغل في شركة مقاولات.

ابتسم متفائلاً، مالت عليه عزيزة هامسة:

- مراتك بتشتغل في المدرسة وتعمل شغل البيت زينا كده؟!

يضحك:

- طبعًا.. بكرة نوال تكمل تعليمها وتتوظف وتتجوز.

- يا رب يا خويا، وتبقى زي مرات خالها.

وضعت نوال صنية الغداء أمامه فوق منضدة من الخشب الأبلاكاش، وعليها مفرش مطرز من لمسات أُنس

الـتي مـا زالـت مطبوعـة عـلى البيـت:

- هي إيه فايدة القناطر يا خالي؟

- شـاطرة يـا نـوال.. أيـوه كـده عايـزك تسـألي وتعـرفي.. عارفـة الميـة لمَّـا تبقـى حادقـة ف أيـام التحاريـق قبـل الفيضـان، الميـة دي تـؤذي الـزرع، كل سـنة البلديـة تعمـل سـد تـرابي عنـد قريـة ديـبي ولمـا ييجـي الفيضـان يجتـاح السـد، لكـن القناطـر ببوابـات حديـد تترفـع وتـنزل حسـب الحوجـة.

ينظر إلى عزيزة كأنه تذكر شيئًا:

-خميس عامل إيه في المدرسة؟

- بيهـرب.. ويتحجـج بالمـسراح مـع أبـوه، وف أيـام الأجـازة يلعـب في الشـارع، مـش قـادرة عليـه وأبـوه بيضحـك في وشـه، والخيبـة ان سـعيد بيقلـده، ع العمـوم مصطفـى هـيروح المدرسـة السـنة دي وهـو الـلي هيرفـع راسي.

***

يجتـاح الفيضـان شـوارع المدينـة، أحيانـا يصـل إلى وكالـة الباشـا في السـوق العموميـة، يتوقـف الصيـد، يعـد الصيـادون أربعينيـة للنيـل، لا صيـد حـتى تهـدأ الميـاه وتقـل حركتهـا تجـاه البحـر، فيضـان هـذا العـام لا يختلـف عـن الأعـوام السـابقة، تتبـدل الممالـك والنيـل لا يتوقـف عـن فيضانـه، في العـام التالي

لافتتاح قناطر إدفينا رحل الملك تاركًا الدولة في يد الجيش، كل ما فعله الصيادون في هذه الثورة غير سماعهم الراديو في المقاهي القريبة من بيوتهم، هو صيحة تعجب:

- الملك اتشحت! الملك اتشحت!

في العطلة التي يفرضها النيل على الصيادين، يعملون بالصيادة في أبي قير، أو يصلحون ما تلف في مراكبهم أو غزلهم.

يرتق علي غزله ويصبغه باللون الأحمر بمادة يسميها «خشيبة»، يربط حبلا في شجرتين من أشجار الكافور الباسقة على حافة النيل، وينشر عليه الغزل المصبوغ، صناعة أُنس عاشت بعدها لكن الغزل تهالك، أوصى علي جاره سلامة الساكن على بعد خطوات من بيته وترسو مركبه قرب وردة النيل، بأن تعمل له زوجته شبكة صيد جديدة، فهي مثل أُنس تجيد صناعة الغزل.

في آصال الأربعينية يبحر بوردة النيل ومعه نوال وخميس، يرسو عند ورش الطوب، أكوام السِّرس المستخلص من تبييض الأرز، لحرقه في صناعة الطوب الأحمر، تغطيه العصافير باختلاف أنواعها، تلتقط كسر الأرز المختبئ فيه، بحركة خاطفة يطرح الشبكة فوقها، تربط نوال جلبابها بشريط نزعته من ملاءة بالية تعدها أمها من بين اللفائف وهي تنتظر الولادة بين يوم وآخر، ترفع الجلباب الطويل من فوق الشريط المربوط أسفل خصرها، يمسك أبوها العصافير من تحت الشبكة ويقضم بأصابعه الخشنة

مناقيرها، ويعبئها في عب نوال المتسع فينتفخ عن آخره، تشعر بنبض العصافير وسخونتها، يقشعر جلدها ويهيأ لها أنها ترتدي فستانًا مبطنًا بالريش.

خميس يساعد أباه في قضم مناقير العصافير ويملأ سلته الخوص، تقف نوال في طشت أمها النحاس وتفك الشريط عن وسطها، يمتلئ الطشت، تنفض نوال الزغب عن قميصها التحتاني وجلبابها، ترسل عزيزة من العصافير للجيران مرة ولأختي علي مرة.

أنفق علي في إصلاح وتجديد اللوتسي والمركب ما معه من مال، وما زال يحتاج لتجديد الغزل ولم يسد أجرة النقاش والنجار، طلب من عزيزة الذهب، تغير وجهها وردت بتلقائية:

- آخد إذن أمي الأول.

جلس على السطح وأسند ظهره إلى الحائط، يطفح الغيظ من عينيه، جال بفكره ممن يقترض؟ أصحابه أعسر من حاله، زوج نفيسة، استدان منه قريبًا لو كان معاه كان سدد ما عليه، صَرَّتْ عزيزة ذهبه في منديل، قدمته له وهي حانقة:

- دهبك أهوه.. دهب أمي واخواتي لأ.

يتراجع غيظه منها، يجذبها إليه:

- يا بت بكرة أجيب لك أحسن منه.

لم يتوقف طلبه للذهب المتبقي إلى أن أخذه عن آخره.

دنـا موعـد ولادتهـا، جـاءت أمهـا وجدتهـا تبـكي مصاغهـا، الـذي كانـت آلام فقـده تثـير حنقهـا أكـثر مـن آلام المخـاض، وصـل المولـود الجديـد، تتلقفـه الأيـدي بفرحـة، لكـن عـدم كفـه عـن البـكاء أثـار قلقهـم، وكانـت المـرة الأولى الـتي ذهـب فيهـا عـلي إلى الطبيـب بـأي مـن أبنائـه، عـاد مـن عنـد الطبيـب، وقـد طاهـر المولـود، كان يطاهـر أولاده بعـد السـنتين وأحيانـا قـرب الخمـس سـنوات.

رشـت حُسـنة الملـح في سـبوع المولـود وأطلقـت البخـور، طلبـت مـن عزيـزة عجـن العجـين وإعـداد اللحـم المفـروم، وهـي سـتقضي مشـوارًا وتعـود لعمـل العيـش باللحـم، ذهبـت إلى الصاغـة واشـترت لعزيـزة مصاغًـا عقـد زيتـون وغوايـش وحلقًـا وخاتمًـا، قبـل أن تخلـع ملسـها ألقـت المصاغ في حجـر ابنتهـا، قبلتهـا فرحـة وخائفـة أن يأخـذه منهـا، لفتـه في صرة بعيـدًا عـن عينيـه، في أثنـاء مسراحـه تخرجـه مـن الـصرة وتتزيـن بـه، وقبـل عودتـه تضعـه في الـصرة ثانيـةً.

تقرفص علي بجوار سلامة المنهمك في ترتيق غزله على رصيف المحكمة، مسندًا ظهره إلى سورها المسيج بالحديد، مودعًا النيل عينيه الشاردتين:

- إيه رأيك تشتري اللوتسي؟

التفت إليه مدهوشًا:

- بعد ما صرفت عليه وخليته فوق المية مية!

- صرفت عليه علشان يجيب مبلغ حلو.

- الأيام دي باحضَّر المندرة الشرقية لجواز متولي.. أول فرحتي عقبال عيالك.

يطقطق علي عقل أصابعه شاردًا، يميل عليه سلامة:

- وبعد ما تبيعه هتعمل إيه.

- المالح.

- إنت معاك لوتسي بشراع بيدخل المالح؟!

- عايز مركب بمكنة يقعد في المالح أسبوع اتنين تلاتة.

- يا علي عيش على قدك ما تبصش لفوق.

- والعيال هسيبهم كده؟ عايز أعمل لهم حاجة تصرف

عليهم.

أشاح بيده في وجهه:

- اعمل اللي يعجبك، إنت دماغك ناشفة.

سرعان ما تم بيع اللوتسي، لم يجد مفرًا من الشركة وما زال يحتاج إلى المال، اتجه إلى عزيزة، فقد لمح عقد زيتون تحت تقويرة جلبابها، فتش دولابها وصندوقها، وقعت الصرة في يده، يستفسر عن مصدرها، بكت حانقة:

- دي حاجة أمي.

أعدت صُرَّة حاجاتها، ولفة الملاءة اللف حول جسدها وبطنها الممتلئ، أسدلت الشمك، رفعت محمد على كتفها، أنزلته، لم تحتمل ضغط قدميه على بطنها، حمل مصطفى الصرة، أوصت نوال بالاعتناء بإخوتها وبالذات محمد الصغير، الدموع تغالبها طوال الطريق إلى إدكو وقد أعطت وجهها لشباك العربة، ومصطفى يربت على كتفها ويميل عليها:

- معلش يا امه.. ما تعيطيش بقى يا امه.

***

دخلت على أمها وصابحة بأعين دامعة، أدخلتها أمها إلى حجرتها، وبعد ماسمعت منها، أسفتها لتركها بيتها من أجل أشياء لا تستحق، فالمرأة العاقلة تقف بجوار زوجها وكان المفروض أن تقول:

- أشوف لك سُلفة مع اخواتي، جوزك عايز يتقدم في شغله، هيعمل إيه؟ عنده كوم لحم، ع العموم اقعدي لغاية ما تروقي.

حاولت صابحة أن تعرف شيئًا من مصطفى عن سبب غضبة أمه، أحضرت له طبق أرز باللبن، طوح ملاعقه في فمه سريعًا وهي تسكب عليه الأسئلة:

- أبوك ضربها؟ قال لها ما تقعديش في البيت؟ وللا إمشي من هنا؟ قال لها انتي طالق؟ ما تقول يا وله.

ابتلع ما في فمه، مسح حول شفتيه في كُم قميصه:

- جيت م المدرسة أمي قالت لي تعالى معايا، وطول السكة تعيط وماعرفش ليه.

كفت عن الأسئلة، وضع الطبق فارغًا في يدها، خرج يلعب مع أولادها في الحوش، تابعته بنظرة متعجبة، مصبرة نفسها:

- يا خبر بفلوس، الواد طالع لأمه وسته ما حدش يعرف لهم حاجة.

جاءت زوجة الصافي ومعها ابنتها، رمقتها حُسنة بقلق:

- الصافي فين؟

ردت دون أن تنظر إليها:

- عنده شغل، وصلني عند ابويا وقال هيخلص شغله ويجي ياخدني.

تابعتها حسنة بنظرة مرتابة وهي تحاول الابتسام، فتبدو قسماتها كمن تقاوم البكاء، اعتدلت حسنة في جلستها على الشلتة، أشارت إليها بالجلوس أمامها على الأرض:

- مالك يا بت؟ اتكلمي دوغري.

سالت دموعها وعلا صوتها المتقطع بالنهنهة:

- الصافي خلاص مسافر، ويا عالم هيرجع إمتى.

- بالراحة.. واحدة واحدة.. إيه اللي حصل؟

مسحت بكفيها دموعها:

- من بعد إضراب مارس، وهو قلقان، وكل شوية يقول عُمرك شوفتي الإذاعة تذيع أخبار إضراب ساعة بساعة سواقين النقل والترام، كل حاجة متوضبة اللي هُمَّا عايزين يعملوه هيعملوه، ويبقوا قُدام الشعب أبطال، كل يوم والتاني هيفَصَّلوا قانون، النهارده إصلاح زراعي، وبكرة يأمموا كل حاجة واللي تعبت فيه سنين ياخدوه مرة واحدة.

ناولتها صابحة كوب ماء، رشفت منه ما بلل شفتيها:

- كان له حصة ف مضرب رز ف رشيد باعها، كتب عربية باسمي، أخويا شغال عليها، تصرف ع البت، وهو..

تزيد شنهفتها:

- صَفى شغله وهيسافر.

الوجوم يرتسم على ملامح النساء الأربع، تهمهم حسنة كأنها تكلم نفسها:

- من غير ما يقول لي!

تقاطعها الزوجة الباكية:

- خايف يضعف ومايعرفش يسافر.

ينضح صوت حسنة مرارة:

- هو حصل إيه؟ الغزل بيتلخبط ليه؟!

غلت صابحة كوب نعناع لعزيزة المتوجعة في سرير أمها، جلست على حافة الفراش من ناحية وزوجة الصافي من ناحية:

- وحياة من جمعنا على سرير أمك من غير معاد انتِي هتولدي الليلة يا عزيزة.

- يا ترى يا صافي إنتَ فين دلوقتي؟

- ضهرى يا بت يا صابحة هيتقسم اتنين.

- احمدي ربنا يا عزيزة ان طلق الولادة ماجالكيش في السكة.

- الصافي هيرجع تاني.

- مش هتقولي سبب الغضوبة؟ هو ضربك يا بت؟

- يوه يا صابحة.

- ضرب الحبيب زي أكل الزبيب، إوعي يكون عايز يتجوز.

- معقول الصافي يفكر يتجوز بره؟ وأنا أعمل إيه؟!

- مش انتي.. باقول لعزيزة.

تنفض عزيزة عنها الغطاء صارخة:

- إلحقوني.. مش قادرة.

تجري صابحة إلى أقرب داية من البيت، جاءت تدفع الداية أمامها، وجدت المولودة نزلت بين يدي جدتها، تقطع الداية المشيمة، تغسل حسنة عن المولودة شمعها وتدثرها باللفائف، تنام على صدر أمها، تحلق الأولاد حولها، يختارون لها اسمًا، أطلق عليها مصطفى ماجدة، رغم مزاح صابحة وترديدها كلمة الواد الساهي، فقد تمسكت بتسمية أخته.

***

•

أهملت نوال دروسها واجتهدت في تلبية طلبات الأسرة كل بطلبه، وكثيرًا ما أخفقت في إنجازها، أرسلت سعيد إلى عمتها نفيسة، طلب أبوها صيادية حمراء، وحذرها من حرق البصل كما حدث في اليوم التالي لغضوبة أمها، يومها أكلوا وهم ينظرون إليها مؤنبين، داومت عمتها على المجيء إليهم بعد الظهر تعد لهم الغداء، واليوم تأخرت.

تفتح في نفسها أمل أن عمتها سافرت إدكو لأمها وستأتي بها، ولم تقل لأحد لأن أباها نهر خميس عندما قال إنه سيذهب ليأتي بأمه:

- زي ما راحت لوحدها ترجع لوحدها.

ينير الأمل جنبات نفسها، يتناهى إلى سمعها صوت أمها تتكلم مع خميس في الشارع، تهز رأسها لتتأكد أنها لا تتخيل، تجري على الدرج، تستقبل أمها وجدتها بالقبلات والأحضان، متلقفة بين يديها المولودة الجديدة، تسرع بها إلى أبيها، تسبقها رائحة اللبن الرائب، احتضنها مغمضًا عينيه فرحة واعتذارًا لأنه تركها تولد على فراش غير فراشه.

أخرج خميس ما في سبت الزيارة وهو ينادي نوال:

- يللا حطي الطبلية.

التف الأولاد حول أمهم تقبلهم ويقبلونها، يحكون لها عن طبيخ نوال وتأففهم عليه وفي النهاية أكلوه، قضموا بنهم من فطائر جدتهم وهم يشيرون إلى نوال:

- شوفي أكل ستك.

يتعمد علي عدم النظر إلى عزيزة وعندما تلتقي نظرتهما، تنضح عيناه بالعتاب مقطبًا ما بين حاجبيه، تتابعت النظرات، مصحوبة بابتسامتها الخجلة وانبساط أسارير وجهه المتعب.

تسأل عزيزة عن سعيد، تجيبها نوال:

- راح ينادي عمتي نفيسة.

تلتفت حسنة إلى علي:

- وصلت لغاية فين في المركب أبو مكنة؟

يرمق عزيزة بعتاب، يواصل برم لفافة الدخان:

- ربنا سوَّاها، المعلم السمَّاك دفع المبلغ الباقي وهياخده سمك، نزلت دمياط مع شريكي واشترينا مركب قديم، لما ربنا يعدلها أبيعه وأشتري غيره جديد.

تهز حسنة رأسها، أرادت أن تحدثه عن تجربتها مع نصف المركب الذي تركه زوجها، لكنها تراجعت ولم تجد عنده ميلاً لسماع شيء، فاكتفت بأن دعت له بسعة الرزق.

جاء سعيد محمر الوجه لاهث الأنفاس:

- عمتي بتعيط يابا، قبضوا على عمي منعم وفتشوا البيت.

انتعل حذاءه، هبط السلم سريعًا ومعه خميس، ناولت حسنة سعيد كوز الماء:

- ماتعرفش ليه؟

- بيقولوا يعرف الناس اللي ضربوا نار على عبد الناصر في المنشية.

تفتح عينيها في دهشة، يتابع سعيد:

- عمي منعم كان جايب سلاح من حرب فلسطين، كانوا بيدوروا عليه.

تهبد على صدرها:

- الصافي عنده حق.

***

تطربه تكتكة المكنة فيرهف السمع مستمتعًا بلحنها، في عرض البحر لا ترى عيناه الشاطئ، كم وصل إلى هنا باللوتسي، كان مرورًا، فإمكانيات اللوتسي أقل من المركب (أبو مكنة)، يتذكر ما جمعه من ألواح الثلج المكدسة في ثلاجة المركب، والمواد التموينية، والوابور، وبطانية بلا وبرة كالحة اللون يلتف بها في الليل، فما عاد يتحمل نسيمه.

الهواء المحمل برائحة اليود تتفتح له شعب الصدر انتعاشًا وإقبالاً على الحياة، يشق المركب عُباب المالح من دون مجاديف، يفتح كفيه تستقر نظرته فوق علامات نحتتها المجاديف كأنها خطوط ولد بها، والشراع ما كان يتحمل هواء المالح فيغير مساره، عندما يشعر بزيادة

سرعة الرياح لا يجرؤ على دخول المالح، وبعد أن يرسو ينزل القلع ويغيره أو يرتقه بالخيط المبروم على جوزين ويغسله، ويعيد تعليقه.

يهز رأسه مذكرًا نفسه بالإنجاز الأهم وبأن اللوتسي لم يذهب هباءً، تستعرض عيناه المركب، الصيادون وخميس بينهم يذكره بنفسه في أيام صباه، والميكانيكي ودخان المكنة وهديرها، وكابينة القيادة مكانه، من هنا يتحكم في الدفة.

الميكانيكي أحضره من أبي قير وأسكنه في الدكان الخالي تحت البيت، فالمكنة قديمة وتحتاج متابعة.

فرد الصيادون الغزل، هدأ من سرعة المركب، فتبختر جارفًا بشباكه ما قسم له من خير البحر.

يشتت نسيم البحر دخان لفافته وهو يراقب تحقق الحلم متابعًا رحلة انتظاره التي التهمت سني العمر من انتظار إلى انتظار أطول، الأول الخلف واليوم المالح، يحدد خطة الغد بسداد الدين وشراء مركب جديد، لاحت أُنس لمخيلته، أغمض عينيه متشبثًا بها، ينفض يده ببقايا اللفافة اللاسعة إصبعه.

في غبشة الفجر يلم الصيادون الغزل، ويفكون طرفه المعقود، فينسكب السمك باختلاف أنواعه، يفرزونه مكدسين به الطاولات، يرصونها في الثلاجة، يسكب خميس دلاء المياه على مكان فرز السمك، يشغل أبوه الطلمبة مخلصًا المركب من المياه المتسخة بقطعة صوف مهترئة، يعود اللمعان،

يعانق خميس الأمواج ناشرًا ذراعيه، يدلق على رأسه كوزًا من المياه العذبة، يرتدي قميصه البوبلين ويربط طرفيه فوق بنطلونه المثني إلى الركبتين، بينما يعد الرجال الفطور، سمك مقلي وأرز مسلوق.

عندما اقترب من أبي قير، أسقط الهلب المدلى بأسفل المركب وأرخى له الحبل، رشقه في الصخور، أنزل الصيادون إلى الشط بعض الطاولات، ليبيعها ويشتري دخانًا وشايًا وخبزًا ليكمل الرحلة.

سبقه خميس إلى المركب بالطلبات، سارحًا حافي القدمين، يلتفت وراءه مراقبًا آثار قدميه في الرمال الطرية، يتأمل القواقع المنغرزة في رمال الشاطئ، تداعبها مياه البحر، تتخيلها تغازل القواقع، لا تعرف أنها تلفظها بعيدًا لتجف وتموت، ومهما احتفظت بوشوشة البحر لن تعيدها إليه، فهو مالح كالدموع، يضع قوقعة على أذنه، ينصت لوشوشتها وحديثها عن عشيقها من دون توقف، يلملم منها الكثير ويكومه في جيب سرواله ليعطيها لنوال لتصنع عقدًا.

أخـرج قسـط المعلـم السـماك المسـتدين لـه، وحصـة الشريـك، وأجـرة الصيادين والميكانيـكي، ما تبقى معه يحـرص عليـه ليغطـي تكاليـف الطلعـة المقبلـة.

مـن طلعـة إلى أخـرى ومـا يفيـض مـن مـال تبتلعـه المكنـة، لا تشـبع تصليحًـا، تـشرب الجـاز وتنفثـه هبابًـا، الميكانيـكي يبـذل قصـارى جهـده أمـام تكـرار تعطلهـا، فبـات هـو الآخـر مُهَبَّبًـا.

يلازمهـا الميكانيـكي في البحـر، وفي الـبر ينـام عـلى فرشـة محشـوة بقصاقيـص الصـوف، مبسـوطة فـوق أرضيـة الـدكان الإسـمنت، يـرص بجـوار الحائـط المملـح الـذي يـنز رمـلاً ورطوبـة، سـبرتاية وزجاجـة معتمـة محشـور في فوهتهـا فِلـة ويصـل السـبرتو إلى ربعهـا، وكوبـان مـن الزجـاج مغبشـان بأصبـاغ الشـاي ومضلعـان مـن الخـارج بعلامـة أصابعـه المشـحمة، يعلـق في مسـمار صـدئ بقجـة بهـا غيـار نظيـف وحافظـة معلقـة عـلى بطاقـة مكرمشـة، وأجرتـه الـتي لا يـصرف منهـا مليمًـا.

يبيـع نصيبـه مـن السـمك ويشـترى حـلاوة طحينيـة وسـبرتو، يحتفـظ بالمليـم والنكلـة والقـرش في علبـة لـبن أطفـال فارغـة، يتسـلى في الليـل بتحريكهـا، فشخشـختها تطمئنـه بأنـه لـن يقـرب النقـود الـورق المسـتريحة في الحافظـة.

بعد العصر ينزل إليه خميس بالعشاء مما طبخت أمه، في الصباح التالي يضع الأطباق الفارغة -بعد أن تكون لعقتها الفئران والعِرَس- في دخلة الدار فوق الطاولات المركونة التي أخرجها علي من الدكان، ليضع فرشته مكانها.

في الليل يطرق علي بابه ومعه الجوزة، يفرح بجلسته، فلن يحتاج لشرب المعسل على القهوة، وسيترك له بعض سجائره المبرومة.

حفرت الشوارع، وغرست أعمدة الإنارة الكهربية، وألغيت فوانيس الجاز، في غمرة فرحة الأهالي بالكهرباء، اشتعلت حرب بورسعيد، الراديو تستهلك بطاريته في أغنية «هنحارب» وخطاب عبد الناصر عن تأميم القناة، تُحرك عزيزة المؤشر من «هنا القاهرة» إلى «صوت العرب» ونفس الأغنية وبعدها موجز الأنباء وخطاب الرئيس، يتحشرج الصوت، تهبد على صندوق الراديو، لا يستجيب، بطاريته في النزع الأخير، تخرجها وتضغطها من الجانبين، تعيد تشغيله، لا يكمل الأغنية «هنحارب»، ويتوقف.

أخذت نوال الابتدائية، رفض أبوها دخولها الإعدادية، فهو لا يطيق خروج ابنته الفائرة وضفيرتها تتأرجح وراءها ملامسة ردفيها.

تحب الدراسة لكن أمام ثورة أبيها استسلمت للمكوث في البيت، وجدت سلوتها في صندوق أُنس، كلما جاءت عمتها رتيبة، تضع الصندوق بجوارها لتعلمها شغل الإبرة، أمَّا عمتها نفيسة، فقد ضعف بصرها من كثرة البكاء لفراق

ابنها عبد المنعم، الذي لا تعرف عنه شيئًا، ولم تره منذ قُبض عليه.

اعتاد خميس وسعيد الهروب من المدرسة، لم يكملا سنة دراسية، خرجا كما دخلا لا علاقة بينهما وبين الهجاء، أكد الأب على حفظ القرآن في كُتَّاب جامع الجِندي، خميس يتعلق بصحبة أبيه في المسراح ليهرب من الكُتَّاب، وسعيد لا يذهب وحده، تشتكي عزيزة منه لأبيه، فمن طلوع الشمس إلى غروبها يجلب المشكلات بوقفته في الشارع.

ألحقه أبوه بالعمل في المحبلة فلم يداوم، في الإجازة الصيفية شجعه مصطفى ليعملا معًا، أخذهما علي إلى مطعم في أول السوق العمومية، تركهما بعد أن أوصى صاحب المطعم عليهما، وحَمّرَ عينيه في وجهيهما مهددًا بعلقة ساخنة لمن يخذله.

رحَّب بهما الطباخ على طريقته، ناول مصطفى فوطة، يمسح الطاولات، وسعيد يغسل الأطباق الموضوعة في الحوض، وضع مصطفى طاولة من الجريد على رأسه وذهب بها إلى الفرن، رصَّ عليها الأرغفة الساخنة، عاد بها لينضم إلى سعيد متناولاً إفطاره، جهز لهما برميل المياه المتسخة بعد الفطور لسكبه في البلاعة القريبة من النهر، تسلل سعيد من المطعم من دون أن يراه أحد، أرسل صاحب المطعم مصطفى يبحث عنه في زاوية العقادين القريبة من المطعم، لم يجده، ذهب إلى البيت، وجده يلعب في الشارع أمام البيت بعدما اطمئن بأن أباه في

المسراح، حاول مصطفى إرجاعه إلى العمل فأغواه سعيد باللعب معه.

داوم سعيد على الهروب من المهن التي يلحقه بها أبوه، ومصطفى استقر على الذهاب إلى المدرسة معتمدًا على نوال في شرح ما يستعصي عليه، وفي العطلة يعمل في المحبلة القريبة من البيت.

همس علي لعزيزة عن عريس من عائلة طيبة، أبوه لمَّح له بالتقدم لنوال، تسمعه من دون حماس:

- كان نفسي تكمل تعليمها، بنات الجيران زمايلها في الإعدادية، وكل يوم والتاني المدرسة تطلع علبة سمنة وسكر.

- وفي النهاية هيتجوزوا، شوفي لوازمها إيه؟ جهزتي إيه وفاضل إيه؟

تشهق:

- هو انت مخلّي حيلتي حاجة؟ الله يرحمك يا أُنس.

تفتح الدولاب ومن تحت ملابسها تخرج منديلاً مشغولاً على طرفه عصفور يحمل منقاره سنبلة، فردته أمامه، حلق وسلسلة وخاتم ونصف جنيه، يتردد صوت أُنس في أذنيه:

- عندي عروسة.

- إحنا فين والكلام دا فين.

يدخل غرفتها، يجد نوال تمسك بالمناقيش، تحاول

غـزل شـبكة، ومصطفـى بجوارهـا يكتـب واجبـه المـدرسي فـوق الطبليـة واللمبـة النمـرة خمسـة بجـواره، أنيسـة وماجـدة تسـبحان في النـوم، مـدد بجوارهمـا، وأخـذ كتـاب مصطفـى يتأمـل اسـمه المكتـوب أعـلى الجـلادة.

تقدم لهم عزيزة مربى السماني، يتذوقها مصطفى:

- مش قلت لك عايز مربة زغلول.

يفتـح عـلى ضلفـة الشـباك، فينعكـس نـور العمـود الشـاحب عـلى الجـدران، يبتسـم لـه:

- إن شاء الله هاوصَّل الكهربا للبيت قُريب.

تحـت العمـود يلعـب سـعيد الكوتشـينة، وعـلى الرصيـف يلعـب محمـد بقـرش ملـك وكتابـة، أبـرز سـعيد الولـد، لـمَّ بـه أوراق اللعـب، دارت عركـة مـع المغلـوب، بـدأت بالشـتائم وانتهـت بـأن مـلأ سـعيد ومحمـد حجريهمـا بالدبـش متواريـين في الزقـاق، والمغلـوب ومعـه رفاقـه في الجانـب الآخـر مـن الشـارع، متبادلـين رشـق الطـوب.

مـر عـلى المركـب مـا يقـرب مـن السـنتين، ويـده لا تمتلـك مـا يحقـق لـه اشـتراء مركـب جديـد

«الصـبر» قالهـا لنفسـه، بالـكاد يغطـي مصاريفـه والديـن، مـا زال للمعلـم السـماك أقسـاطٌ، فهـو يأخـذه سـمكًا بالسـعر الـذي يحـدده، تمـر الأيـام، وتتعـدد طلعـات الصيـد وتـزداد أيضًـا الأقسـاط البطيئـة في سـدادها، عندمـا احتـاج لتجديـد الغـزل وإصلاحـات المركـب والماكينـة، يشـعر بحلقـة تضيـق

عليه وتكاد تخنقه.

تحاول عزيزة والأولاد إخراجه من ضيقه، تقترح عليه نوال أن يأخذهم في نزهة بالقارب «وردة النيل» فاستجاب، لفت عزيزة البطاطا المشوية في خرقة، سبقها الأولاد قفزًا إلى المركب، مد إليها خميس سقَّالة خطت عليها إلى المركب ووراءها نوال، جدف خميس مع أبيه، نسمة النيل تجلو النفوس وتبهج الأطفال، نسمة وموج، نجوم وقمر، ضحكات الأولاد تثار لأبسط الأشياء، تنام ماجدة مسندةً رأسها على ركبة أمها، يتبادل خميس وسعيد التجديف، يرسم مصطفى بالطباشير مربعات، يلعب مع محمد بنوى البلح وقطع الطباشير الصغيرة على ضوء القمر، نوال تحكم بينهما.

تدنو أُنس من خيال علي تأخذ مكان عزيزة، يبتسم لها وسرعان ما تفرض عزيزة وجودها الواقعي عليه، ينظر أولاده حولها، يتفجر في نفسه نبع الحنان، وليس بالحنان تسير القوارب، يهز رأسه استسلامًا للواقع.

دفست أنيسة رأسها في حجر أمها وتابعها محمد، ابتسم علي لنوال:

- كفاية كده اخواتك ناموا، والصبح المركب طالع.

تهز رأسها بالإيجاب، يلتفت إلى سعيد:

- حضِّر نفسك تطلع معايا بكرة، وخميس يطلع مع سلامة جارنا.

***

دخـل المركـب المالـح، سـعيد لا يسـتطيع حفـظ توازنـه، أصابـه دوار البحـر، يطلـب مـن أبيـه إرجاعـه، يضحـك:

- هـو دخول المالح زي الخروج منه؟

يضحـك عليـه الصيـادون والميكانيـكي، محاولـين التخفيـف عنـه، الجـو صحـو، تتناثـر السـحب البيضـاء والرماديـة الفاتحة، عندمـا يلـف الغيـام الشـمس، تتخلـل الأجسـام لسـعة بـرد، ثـم تعـاود الشـمس الظهـور نـاشرة الـدفء.

يتأمـل عـلي الطيـور المهاجـرة في أسرابهـا، كل طائـر فيهـا يفـرد جناحيـه ويشـد الرحـال مـن الثلـج إلى الـدفء، لا يـدري أن المصائـد والفخـاخ نُصبـت لـه، يهلـك مـا يهلـك ويعـود مـا يعـود ويسـتمر الترحـال.

لَملـم الصيـادون الغـزل، وفـرزوا السـمك في الطـاولات، عبَّأوه في ثلاجـة المركـب، انهمـك بعضهـم في تنظيـف المركـب، والبعـض في تجهـيز الغـداء، السـحاب الرمـادي يقـترب مـن بعضـه، تتـوارى الشـمس وراءه، كلمـا خرجـت مـن خلـف سـحابة وأنـارت الدنيـا، حجبتهـا أخـرى، المـوج يعلـو، سرعـة التيـار تتزايـد.

يقلـب الرجـال أعينهـم بـين السـماء والبحـر، يقلقـون، يـداوون توجُّسُـهم بتبـادل الحديـث:

- ربك يعدلها يا ريس.

صاح أحدهم كمن تذكر شيئًا.

- تصدقوا فيه مراكب جديدة بونش يفرد الغزل ويلمه؟

- يا سلام!

افترَّ ثغر علي عن ابتسامة ساخرة:

- دا وقته؟ فكرتك هتقول فكرة نعملوها لو الموج عِلي عن كده!

يرد الميكانيكي:

- بكرة يخترعوا بني آدم يمشي بمكنة يقوم بالشغل كله!

يضحكون ساخرين.

- وانت تزيّته.

- أصلهم مش هيلاقوا واحد مهبب أكتر منك.

يتغضن جبينه ويمتقع وجهه الممصوص، رذاذ المطر يغسل الوجوه، تأهبوا واقفين، تحول الرذاذ إلى مطر غزير، والموج يزداد علوًا، يشغل الريس الطلمبة لسحب المياه من المركب، يغطي الميكانيكي المكنة بقطعة خشب، تفاجأ الرجال باشتعالها وفي صوتٍ واحدٍ ينادون الميكانيكي، لم يكن بعيدًا، أحضر دلوًا به ماءٌ وسكبه فوق الماكينة فأصاب مقطر الزيت، توقفت، ووقفت المركب في وجه الرياح والتيار والمطر، حاول تشغيل الرفَّاس بيديه، خطوة وأخرى وتوقف من التعب، أمرهم الريس بارتداء السترات المخصصة للعوم، هم في ربكة إلقائهم لبعض بالسترات، خطفت بصرهم موجة عالية، كالملاءة السوداء،

لـم تمهلهـم لفعـل شيء، في لمـح البـصر حملتهـم ومركبهـم الصامتـة ومكنتـه، ألقتهـم عـلى شـاطئ مهجـور رمـلي تتخللـه صخـور، قـرب البرلـس، والمركـب لا وجـود لـه كأنـه مـا كان.

انتفـض عـلي مـن مكانـه بـين الصخـور المفتتـة والرمـال الخشـنة، وجـد الرجـال مبعثريـن حولـه، لفظهـم البحـر، والميكانيـكي منبطـح عـلى بطنـه وأصابعـه مغـروزة في الرمـال، فاجـأه وميـض، كصعـقٍ كهربـائيٍ، جـأر بصـوت أودعـه خوفـه وانكسـاره ومرارتـه:

- سعيد.. الوله كان نايم.

خلـع قفطانـه المبتـل وألقـى بنفسـه للبحـر، هـمَّ الرجـال المتقلبـين عـلى الرمـال بمنعـهِ، لـم يدركـوه، يحـاول أن يتمالـك نفسـه في وجـه البحـر الـذي سـحبه ولفظـه أبعـد مـن المـرة الأولى، عندمـا انسـحبت الموجـة الهوجـاء خلفـت سـعيد عـلى الرمـال ممسـكًا بطـرف بطانيـة مشـقوقة، حملـه أحـد الرجـال إلى أبيـه المُقَسَّـم بـين الهـم وفرحـة النجـاة، أخـذه بـين ذراعيـه يرتعـد كعصفـور مبتـل أطـاح الريـح بعشـه، سـكن في صـدر أبيـه، رفـع عينيـه إلى وجهـه متمتمًـا:

- العمة فين يابا؟

ضغطه إليه.

- هي العمة بس؟!

تجمع الرجال حول الريس وابنه:

- الحمد لله.. كله مكتوب عند الله.

- دي حكاية ولا في الحواديت.

- قدَّر ولطف.

- كله يتعوض، المهم الرجالة بخير.

ربت أحدهم على ظهر سعيد:

- على رأي المثل.. إديني عمر وارميني البحر.

- كله من ميكانيكي الغابرة.

صدمة فقد سعيد وفرحة نجاته عقدت لسان علي، بينما قلبه يبتهل إلى الله بالشكر والحمد.

تقوقع الميكانيكي على الشاطئ منبوذًا، يتابع نظرات الرجال إليه وهمسهم، لم يكن خائفًا بل يفكر في الأجرة المتأخرة عند الريس، ماذا ينتظر من مركب غرقان؟!

هدأ البحر، توجه الريس ومعه سعيد والصيادين إلى خفر السواحل ليبلغوا عن المركب الغرقان، استقلوا مركبًا بشراع، يهتز القلع مذكرًا علي بما فقده من أجل المركب، ومصيره بين الشريك والمعلم السماك، دائرة لا يعرف من ستؤول إليه عقدتها التي ستُحْبَك حول عنقه.***

أوشك المركب الشراعي على التحرك تاركًا الشاطئ المهجور، قفز فيه الميكانيكي، انزوى في ركن، عند أول المالح أمام خفر السواحل نزل علي ومن معه، تخلف بعد أن أوهمهم بأنه خلفهم، طلب من عامل المركب أن

يوصله إلى قارب تعدية متجه إلى رشيد.

أنزلته المعدية قرب نادي البلدية، يُسرع الخُطى غير عابئ برائحة العطر والزهور، اهتزاز أغصان الكافور والصفصاف والجازورين، وصأصأة العصافير، والهواء المداعب لشعره الفاحم المجعد ولقفطانه البني المتسخ، فقط يغمض عينيه ويفتحها اتقاءً للأتربة المثارة في الهواء.

همَّ بالولوج إلى الشارع الجانبي المؤدي للبيت، تلفت وراءه متفحصًا الوجوه خشية أن يدركه الريس أو من معه.

بالسقاطة المعلقة في ضلفة الباب اليسرى، على شكل كف مطبقة على حجر طرق باب الدار، يكرر الطرق، وعيناه ترصدان أول الشارع، فتح له مصطفى، بيده المضطربة مسح على رأسه متخطيًا نظرته المستفهمة وحركته أمامه، ليستوقفه عن الوثوب على الدرج مصفقًا متنحنحًا:

- يا ست أم خميس.. أنا جابر الميكانيكي.

تخشَّبت عزيزة أمام باب الوسط، ونوال في الصالة توقفت عن رصِّ أطباق البصارة المزينة بالبصل المحمر على السطح، وصل إلى البسطة الوسطى ومصطفى في منتصف الدرج بينه وبين أمه، ابتدرته عزيزة منزعجة:

- خير.. فيه حاجة؟

مغضن الجبين، مطأطئ الرأس:

- المركب غرق والريس والرجالة في السواحل.

تهبد عزيزة على صدرها شاهقة، تتطلع إليه نوال بعينين مغرورقتين:

- أبويا فين؟ جرى له إيه؟

ينظر إليها فاغر الفم والعينين، يتذكر ما جاء من أجله، فيتصنع التأثر والمواساة:

- ماتخافيش يا ست البنات، الريس بخير، وسعيد كمان.. كلهم بخير.

يجذبه مصطفى من قفطانه، ينبهه لوجوده:

- إنت مش كنت معاهم؟ سبتهم وجيت لوحدك ليه؟

يربت عى ظهره:

- عليك نور.. الريس بعاتني آخذ له الجلابية الصوف واللاسة واسم الله على مقامكم الجزمة.

تتبادل نوال النظرات الحائرة مع أمها وهي تلف ما طلبه، ندت عنه ابتسامه صفراء عندما لمح الأشياء في يدها، أخذها مغالبًا ابتسامته متأثرًا:

- الجو برد والريس هدومه مبلولة، لابس بطانية الإنقاذ.

ذاب من أمامهم وهو يكرر:

- ماتخافش رايح له حالاً.

دخل الدكان سريعًا، وضع حاجيات علي مع ملابسه النظيفة وحافظته في الصرة، فرد كيسًا من العبك، لملم

فيه السبرتاية والأكواب وأطباق وملاعق خبئها، وقال لخميس: تركتها فوق الطاولات وضاعت.

كلما سمع صوت أقدام تلفت حوله وزاغت عيناه كفأر في المصيدة، ثم يصمت متسمعًا، خرج بالصرة والكيس، تذكر الشمعة والسجائر وعلبة لبن الأطفال بملاليمها، رجع يلملمها، أغلق الدكان من دون صوت، على أطراف أصابعه يغادر الشارع الضيق.

تنبه لسيره في شارع البحر قد يقابلهم عائدين، انعطف مع أول طريق جانبي، تنهب قدماه الشوارع المرصوفة والمتربة وصولاً إلى محطة القطار.

-١١-

تصفو السماء مضيئة على النيل من زرقتها، وإذا مالت إلى الرمادي اصطبغ بها مكتئبًا، يقلب علي وجهه بينهما غير شاعر بحفيف الأشجار المتداخل مع زقزقة العصافير، يتأمل حركتها المضطربة، تخاف أن يغرز الخريف أنامله في أشجارها مطوِّحًا أعشاشها فعلام تغرد؟!

الجلسة أمام وردة النيل معقودة الوثاق إلى الشط، أطيب مكان في الدنيا، يهدهدها الموج، فتتألق في نفسه الذكريات، من وقوفه على يد نجار المراكب إلى الدهان إلى نزولها النيل، وأول شبكة صيد صنعتها أُنس.. آه.. أُنس.

مصطفى بجواره رمى النهر بصخرة صغيرة، أحدثت صوتًا وطرطشة، أخرجته من ذكرياته، رمقه بحنو، وأدار وجهه إلى النيل، من هنا بدأ، والآن يتحسس سالفه الأشيب من تحت العمامة.

تطارده صورة عودته من دون المركب، عاري الرأس غائر العينين، من رآه عندما أبحر به لن يعرفه عند عودته من دونه.

غروب طرقت قدماه الشاطئ، وازدحام المعدية على أشده بالعائدين والذاهبين من وإلى البر الثاني، والصيادون العائدون من المسراح منتشرون في شارع البحر، من يُحمِّل

كارُّو بالطاولات، ومن غاصت رأسه تحت كوم غزل، ومن أطبق كفه على دلوٍ أو مِشنَّة، شعر بهم يحملقون فيه، أهملوا أعمالهم وتابعوه باستفهام مقتربين من بعضهم مشيرين إليه، أشاح بوجهه عنهم متأكدًا أنهم سيلحقون بمن كانوا معه ليرضوا فضولهم، خطواته ثقيلة، يتذكر من يرمقونه، فيوسع الخطوة، ليته انتظر هبوط الليل.

توقف أمام دكان الميكانيكي، ضلفتاه تتأرجحان، وتأز مفصلاتهما الصدئة، أمعن النظر بداخله، لا وجود لصرته ولا أشيائه المركونة إلى الجدار المتآكل، تاركًا الأرضية مزيّته غامقة، أدرك أنه رحل، خبط كفًا بكف.

فتح باب الدار، استقبله مواء قطتين مكشرتين عن أنيابهما، ما أن رأتاه، اضطربتا، مرقت إحداهما مسرعة إلى الشارع، والأخرى وراءها بعد أن بالت فوق العتبة، أدلى الكوز الصفيح في الزير، فتخبط بين جدرانه، وقبل آخره وصل إلى جرفة ماء، دلقها موضع ما بالت.

استند إلى الداربزين الحديد مرتقيا السلم، تنبَّه إلى كونه حافي القدمين، يدهش من نفسه، أسلك الطريق حافيًا من دون إحساس بالتراب أو الحصى؟!

تقابله الأعين ملهوفة مغرورقة، لا يعرف ماذا يقول، في منظره الإجابة كلها، تفاجئه نوال بمعرفتها بغرق المركب.

- فداك يابا.. نجاتك عندنا بالدنيا.

هز رأسه الأشيب المشعث، طارت أخباره، قصة الموسم.

دخل سعيد مصفر الوجه، لاذ بحضن أمه، أطبقت عليه ذراعيها:

- بسرعة يا نوال هاتي المية السخنة من ع الكانون.

جرى عليه مصطفى وخميس، والتصقا بجنبيه، أراح ذراعيه على ظهريهما، رمقه مصطفى، ورائحة البحر تفوح من ملابس أبيه الرطبة:

- الميكانيكي أخد لك هدوم.

نظر إليه مدهوشًا:

- هدوم إيه؟!

- الجلابية واللاسة والجزمة.

زعق على عزيزة ونوال، حكت نوال ما حدث، عزيزة دفَّأت سعيد تحت الغطاء، وهي تدعو على خائن العيش والملح، فتح علي ضلفة دولاب أنس ذات المرآيا، نظر إلى عري رأسه وقدميه وتحسس ملابسه ما جف منها والذي ما زال مبتلاً.

طفرت دموعه، مسحها بكم قفطانه، جاء زوج أخته نفيسة يطمئن عليه عندما وصله الخبر، فكر علي في طلب سلفة منه، لم يستطع، فهو على علم بظروفه المالية السيئة بعد اعتقال منعم، مد إليه مصطفى بوصته، بعدما ربط في طرفها شعرة نايلون رفيعة ناعمة، وثبت في آخرها شص، فتح حُق الديدان:

- اغرز الدود في السنارة يابا.

مسك بإصبعيه دودة وبيده الأخرى السنارة، شبكها وشبك غيرها، تناولها منه مصطفى، وقف على حرف القارب مدليها وفِلّتها الطافية بؤرة اهتمامه.

***

تطوع اثنان من جيران الشريك في المقهى بإسماعه الخبر، قال أحدهما:

- ماعرفتش اللي حصل النهاردة؟ مركب الريس علي غرقت في المالح.

يرفع الثاني صوته متظاهرًا بصعق الخبر:

- يا حول الله، المهم الرجالة.

- بخير.. شفتهم راجعين من غير المركب.

فغر فاه، خرج لتوه والاثنان يتابعانه بمؤخرة أعينهما.

طار صوابه، لم يطق صبرًا، حام حول البيت في الليل، عاد مبكرًا، طرق الباب أطلت نوال من نافذة بئر السلم:

- أبويا ع البحر.

أخذ الشارع مهرولاً، وجده كما تعود أمام وردة النيل، تظاهر بقلقه عليه، وفرحته بنجاته:

- أي حاجة تتعوض.. المهم انت بخير.

قـرأ عـلي في عينيـه قلقـة عـلى مالـه، وندبـه حظـه الـذي أوقعـه في شركتـه الـتي توهمهـا سـتغنيه مـن دون تعـب، رد عـلى مـا أراد الاسـتفهام عنـه:

- المركب ممكن يتنشل من المية.

توقف مرددًا نظرة بين الشريك والأرض:

- عايز مبلغ كبير.

انطلق جوابه:

- ومالـه إنـت النـص وأنـا النـص، وبعـد كـدة يتبـاع وكل واحـد ياخـد حقـه ويـا دار مـا دخلـك شر.

أجـال عـلي النظـر في مـا حولـه، وبـدت الدنيـا لعينيـه عـلى رحابتهـا ضيقـة:

- ادفع للمركب وساعة البيع خد...

قاطعه متذمرًا حانقًا:

- مافيش فلوس، أنا ع الحديدة.

أطـرق محدِّقًـا في النيـل متجهـم الوجـه، التفـت إليـه كأنـه تذكـر شـيئًا:

- تستلف ليه وعندك بيت ملك.

اتسعت عيناه الحمراوان، فعاجله الشريك:

- مين اللي يرضى يسلفك مبلغ كبير كده.

دار كلاهما حول الآخر، استطرد:

- مش لازم تبيع البيت كله، نصه كفاية، وبعد بيع المركب رجعه.

يرمقه من تحت حاجبيه الكثيفين، يتمتم علي كأنه يحدث نفسه :

- البيع هياخد وقت.

يهئ نفسه على إقناعه بالبيع، يرد متحمسًا:

- ولا يهمك أجيب لك بدل المشتري عشرة.

أبرم العقد ببيع نصف البيت، على أن يكون للمشتري الطابق السفلي وهو إيجار الدكاكين، وقع العقد وبصم بإبهامه، وقتها انغرست شوكة في صدره، وشعر أنه طائر وقع في الشرك، ما كان عليه التفكير إلا في المركب الغرقان، احتاج بعد الانتشال إلى تصليح، وعرض للبيع، فتح الشريك حافظته الجلد ذات الكباسين، وضع بها حسابه، أرجعها مكانها في جوف الصديري، بين لحظة وأخرى يتحسسها، خبط على ظهر علي، وألقى السلام مبتعدًا.

سدد علي ما عليه من التصليح، المبلغ المتبقي لا يكفي لأي شيء، إن وضعه في جيبه لن يكفي مصروف بضعة أيام، وديون المعلم السماك من يسدها، ونصف البيت من يرجعه، يتملى وردة النيل:

- جه دورك في البيع.

أظلمت الدنيا في عينيه، وشح الهواء في صدره، حاول أن يرفع قدمه إلى قاربه، لم يستطع، لمحه مصطفى ممتقع

الوجه، رمى بوصته في القارب، وقفز إليه، استند أبوه إلى كتفه الغضة، ارتقى على السلم بصعوبة لم يعهدها من قبل، تجمع الأولاد حوله عندما دخل غرفة أُنس، وجلس على حرف الفراش، أشار إلى مصطفى، تسند عليه إلى الشباك المشيش، رأى أكوام الغزل والصيادون يرتقونها فاردين ساقًا وطاوين أخرى، سره تغريد العصافير جاعلة من سلك الكهرباء التي لم يُدخِلها إلى البيت بعد، أرجوحة.

استلقى فوق فراش أُنس، وضع العمامة بجواره، عزيزة تخرج الأولاد إلى السطح، أشار إلى نوال بفتح الشباك، يبتسم لصورة أُنس وهي تتوسط أختيه متطلعة إليه بضفيرتيها الملتويتين فوق أذنيها، يشهق لانغراز الشوكة في صدره، كأن الشريك والميكانيكي والسماك يضغطونها بأكف لا ترحم، أوشكت الشوكة على النفاذ من ظهره، وهو يبحث عن صورة أُنس لترطب حلقه الجاف وتحلق معه بعيدًا.

-١٢-

كلما اقتربوا من المقابر اتضحت أصوات المقرئين، تخللوها، مصطفى في المقدمة، في إثره ماجدة وقد دفست كفها الصغيرة في يد أمها، فرشت عزيزة ملاءة مهترئة، أحضر مصطفى دلوًا به ماء من جامع الشيخ سعد الله المتداخل في المقابر، روى الصبارة التي زرعها في أول خميس طلعه على أبيه، رش الماء المتبقي فوق التربة وحولها، استأجرت عزيزة مقرئًا، قرأ سورة الرحمن، صمت متململاً، عندما لم تغمزه بأجر جديد، قال الفاتحة، وهمَّ واقفًا ممسكًا نعله في يده، يشرئب باحثًا عن ثواكل يستأجرنه.

تراصت القبور مبنية بالطوب الأحمر ومدهونة بالجير أو الزيت، وبعضها مكسو رخامًا، تتصدرها لوحة باسم المتوفى، دفن علي في لحد وسويت عليه الأرض، تتمنى عزيزة أن ترفع فوقه قبرًا، وكيف لم يفكر علي في اشترائه طوال حياته؟!

همس لها أخوها مصطفى ساعة الغسل:

- هيتدفن في جبانة العيلة؟

شردت كأنها لم تتوقع دفنه، حملت سؤاله إلى رتيبة:

- عندكم جبانة؟

- ادفنوه في لحد، جبانة أبويا في إسكندرية بلاش شحططة.

طار النوم من عينيها، تحسب ما تركه، وما عليه، البيت نصفه مبيع، تنهدت يائسة ومستسلمة للأمر الواقع، الدين للسماك، لا مفر من بيع القارب والغزل، تتمتم في هدأة الليل:

- الدين مذلة بالنهار وهمّ بالليل.

أفرغت حافظته في حجرها، جنيهات قليلة وعقد بيع نصف البيت، تهز رأسها تحسرًا متمعنة في توقيعه بحروفه المضطربة وبصمته الزرقاء.

غلبها النعاس في جلستها على الأريكة، وخلفها ينضح نور عمود الشارع من خصاص النافذة، رأت الكلاب تحوم حول تربته، انتفضت من نومها القِلِق، أمالت القلة على فمها، تبلل حلقها الناشف، هزت أخاها النائم بجوار أولادها، تنبه فزعًا محمر العينين، سمع منامها وهو يغالب انسدال جفونه:

- عليه ديون؟

تركته يكمل نومه بعدما وافقها على ما نوته من أن ترتاح من الدين.

شعرت بالهم ينزاح عن صدرها عندما ذهب أخوها مصطفى للسماك، يتنازل عن وردة النيل نظير الديون، أحس منه مراوغة، فأجل التنازل بحجة أنه جاء ليعرف طلباته، وسيأتي ثانية لإبرام العقد.

لم يسترح للدائن، فهو لا يكتفي بالقارب، عاد إلى البيت، سمع صوت شحاتة أخيه، فرح سيعينه على طمع الدائن، المهم أن يفي القارب بالدين ولا يدفعوا فوقه، فالأيتام أولى بكل قرش، وجد شحاتة متجهم الوجه، يؤنب عزيزة على تسرعها، فقاطعه:

- عايزها تعمل إيه؟!

- وتعيش منين؟!

همَّ بمقاطعته، استمر شحاتة:

- وتربِي عيالها من الإحسان ليه! وعندها رأسمال.

كظم مصطفى حنقه من الدائن ومن أخيه:

- مين هيشغل القارب؟!

رمق خميس وسعيد:

- استخرجت بطاقة يا خميس؟

تحسس جيوبه، وأخرجها، قلبها شحاتة:

- المهنة صياد، تعرف تشغل القارب؟

هز رأسه بالإيجاب، وفي عينيه نظرة رجاء.

ابتسم مصطفى وبدا على وجهه الصفاء، تمتم وهو يخرج حافظته:

- اتصرف وخد معاك...

ربت شحاتة على يد أخيه، خرج خميس مع خاله ترتسم

على وجهه الأبيض المشرب بحمرة التعرض لأشعة الشمس، علامات الفرح والفخر بخاله الذي سينقذ وردة النيل من يد السماك، فهي بالنسبة له تخليص حق، وبالنسبة لهم تعني الكثير.

وقف شحاتة أمام وردة النيل نفس وقفة علي، السحب البيضاء متناثرة في السماء، صفحة النيل لامعة، الموج يهزهز القارب، الطيور البيضاء ترفرف، العصافير في مناقيرها خصل القش، النسيم محمل برائحة الريحان، الصيادون بوجوههم السمراء، يجلسون تحت الشجر يرتقون غزلهم، وصبية يجهزون البوص بالشص.

تذكر صباحية عرس عزيزة ونزهته مع الصافي ومنعم وحسن، همهم:

- أين هم الآن؟ الصافي مسافر، عبد المنعم معتقل، حسن لشوشته في إعالة العائلة وحده، وأنا! وحدي!

يخرجه خميس من أفكاره مقدمًا إليه سلامة جارهم، حياه وسأله:

- يساوي كام المركب؟

قفز داخله متفحصًا:

- خسارة تبيعه، المرحوم مجدده قريب.

رمى فيه سعرًا أعلى مما قدره الدائن.

دخل شحاتة وخلفه خميس، وقف لهما الدائن مرحبًا،

قدمه خميس:

- خالي أستاذ جامعة في مصر.

أخرج من دفتر حساباته ورقة بديون المرحوم، راجعها شحاتة وخميس من وراء كتفه يعيد القراءة، رفع وجهه في وجه المعلم:

- مزود فايدة كبيرة، مش خايف من ربنا؟

تلجلج الدائن:

- تحت أمرك، وعشان خاطر جيّتك نخفضها.

رفع النظارة عن عينيه:

- طبعًا المرحوم كان فاكرك بتشتري بسعر الجملة.

أدار وجهه ممسكًا بحواف المكتب:

- بتشكك في ذمتي يا أستاذ، خليهم عليّا، اعتبرهم من عندي للأيتام.

رمقه بنفاد صبر.

- حقك هتاخده من غير فوايد.

سبقه خميس إلى البيت بالمخالصة، يروي لإخوته ما قاله خاله، وكيف أخرج من جيبه المبلغ وزيادة، سألته أمه: فين خالك؟

- راح لحسن ابن عمتي نفيسة.

أيام وتفرق عنها الجميع، تغلق بابها على أولادها، يأتي

خميس وسعيد بالسمك عند الظهيرة، بحساب اليوم بعد خصم اليومية، تضع القرش على القرش لتبني فوق لحد زوجها قبرًا، لتتفرغ للأهم، جهاز نوال، فقد طلبها أخوها مصطفى لابنه البكر.

تنبهت عزيزة على صوت ماجدة وهي تقلب في الرمل فوق اللحد:

- قرش يابا.

يبث لها مصطفى قرشًا في الرمل، عندما تعثر عليه، تبدو السعادة في عينيها، وتطبق عليه يدها، يدنو منها مصطفى:

- بكرة هاروح السيما، وآخدك معايا تتفرجي على زيارة الرئيس عبد الناصر لرشيد.

تنظر إليه عزيزة متعجبة:

- اتفرجت ع الزيارة كم مرة؟!

- خلاص احكيها أحسن.

وصل الرئيس بالقطار، ركب عربة مكشوفة، تمشي الهوينى والناس تجمهرت، عند البوستة رقص واحد طويل وعريض بالحصان، وصورة الرئيس يرفعها على قائم خشب فوق ظهر حصانه، سلم على الرئيس باليد، تنزه الرئيس في النيل بين المراكب والصيادين، أوقف الصيد يومها.

في الحفلة عند نادي البلدية، تقدمت بنت عمرها ثلاث سنوات وسلمت عليه ودست في يده ورقة هامسةً:

- خرَّج لي بابا.

فتح الورقة وتلفت هامسًا لمن حوله، ابتسم لها قائلاً:

- حاضر بكرة يكون عندك.

أبوها محكوم عليه بالمؤبد، لأنه ضبط متلبسًا بجمع تبرعات لعائلات المقبوض عليهم من الإخوان في حادث ١٩٥٤.

البنت قدمت طلب عفو صحي عن أبيها.

بنت أخرى سلمت على الرئيس وقدمت له باقة ورد، أحاطت رأسها بتاج مكتوب عليه روزيتا، وعلى فستانها وشاح منقوش عليها بخطٍ واضحٍ أعيدوا إليّ مجدي.

كل مرة أشاهد الشريط كله كرامة للبنتين، تقاطعه عزيزة:

- سبب الزيارة إيه؟

تبدو في عينيه نظرة فخر، فأمه تحدثه على صغر سنه، كأنه العالم بالأحداث:

- أصحابي قالوا تكريم للبلد اللي هزمت الإنجليز يوم عيدها القومي، ورجعوا قالوا كان بيوزع أراضي الإصلاح في إدكو.

نفحت عزيزة التربي عشرة جنيهات لبناء القبر، وعدها بأنها في المرة المقبلة ستجده مبنيًا وعليها أن تحضر معها جنيهين آخرين لتستوفي الدهان وكتابة الاسم.

ألح خميس على جدته وصابحة أن ينزِّههما في القارب،

بعد المغرب جدف، بمساعدة سعيد، بأمه وجدته وصابحة وإخوته، مسحت الجدة حسنة على رأس نوال:

- عريسك يخلص الجهادية وتدخلوا طوالي.

توردت وجنتا نوال، متذكرة زيارته الأخيرة، وإقناعه لها بتكملة تعليمها، ومشاعرها العذبة تجاهه، قطعت صابحة شرودها:

- أقول لكم على سر؟

اشرأبوا إليها جميعًا، تململت، أخذت نفسا، ثم أخرجت جملتها دفعة واحدة:

- خالكم شحاتة رايح يدخل لكم الكهربا بكرة.

ضج قاربهم وردة النيل بالتصفيق وصيحات الفرح.

رُوزِيتَّا

رواية

تتلاحق النسمات تهز الضباب الملتفعة به المدينة في انتظار شمس تزيحه، تبدو أشجار البر الثاني في الظلام كأنها أشباح يحجزها النهر، رائحة الفل والياسمين تذوب في رائحة النهر وتجدد الهواء في صدرها، القوارب واللواتس راسيات على الشط تهتز باهتزاز الموج الناعم، وهناك قارب أخذه الموج بعيدا، حبله مربوط في وتد، يبدو أن صاحبه أرخى له الحبل، من يرى الشط الآن أو قبل مجيء البنات، يظنها مدينة مهجورة أو نائمة تحت غلالة الليل.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

9 789776 376915